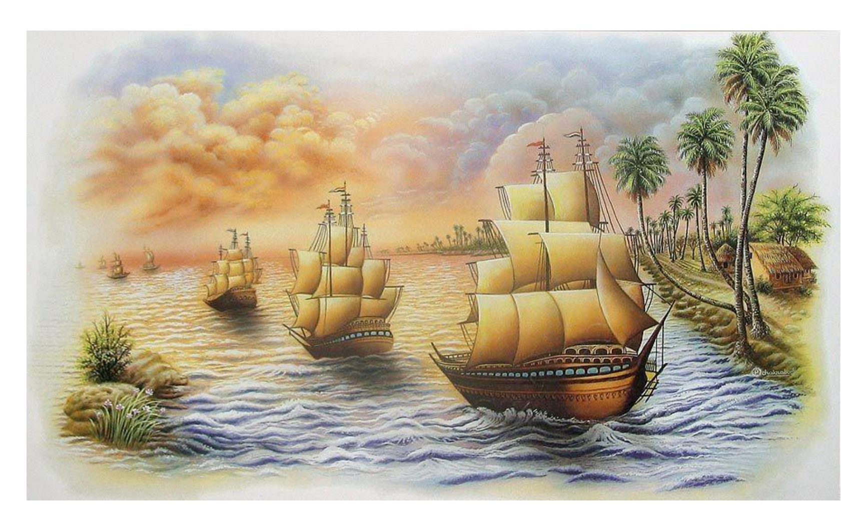
أسرار الكشف الجغرافي عن البحر المحيط



بقلم : ر.ك بالاندين،

و ف.أ ماركين

ترجمه عن الروسية :

د.عاطف معتمد

العنوان الأصلي للكتاب:

Рудольф Константинович Баландин , В. Маркин (2004) Сто великих географических открытий. Москва, Вече.

نشرت الترجمة بمجلة الترجمان العدد 2 ، القاهرة يوليو 2012، وتصدر المجلة عن مركز اللغات والترجمة بجامعة القاهرة

ليس من اليسير الوقوف على معلومات دقيقة شافية لرحلة من الرحلات البحرية عبر التاريخ، رغم أن هذا التاريخ يحتفظ بقائمة طويلة من أسماء بحارة ومغامرين جاءوا من أصقاع مختلفة لاستكشاف المجهول في الطريق إلى الهند وجنوب شرق وشرق أسيا أو إلى ذلك العالم الممتد وراء بحر الظلمات (الأمريكيتين).

لغز الأيكومين

وتنسب أقدم الخرائط التي وصلت إلى معارف الإنسان إلى آسيا الصغرى، ويعود تاريخها إلى الألف السابع قبل الميلاد، وتصور جزءا صغيرا من الأرض. كما عثر الأركيولوجيون في القرن الخامس للميلاد على خريطة بابلية تصور الأرض وقد أحاط بها البحر المحيط على ما يبدو، ويرجع التشكك في موقع المحيط من الأرض ذلك التشوش الذي تبدو عليه الخريطة المحفورة على صخرة وهو ما يجعل تحليلها مهمة صعبة.

ولا فرار من الاعتراف بأن معرفة الإنسان في عصور ما قل التاريخ بالبحر المحيط كانت فكرة تخمينية تدعمها كثير من الافتراضات. وقد دعمت ملحمة هوميروس (التي ظهرت في اليونان منذ نحو ثلاثة آلاف سنة) هذه الفكرة التخمينية بما احتوته من معلومات عن "الأُيكومين" أو الأرض التي نعيش عليها.

هوميروس ..الشاعر الضرير الذي قدمت أشعاره معارف جغرافية رائعة

كان بحر قزوين معروفا في تلك الملحمة، غير أن سواحله الشرقية لم تكن متطابقة مع الواقع بشيء. فقد تلاصق المحيط الهندي مع الساحل الشرقي لبحر قزوين واستمرا معا نحو الجنوب إلى "البحر المحيط" ، أما المحيط الأطلسي فقد امتد من الجنوب الغربي نحو الشمال الغربي. ولم يتبق وقتها إلا اقتراح موقع المحيط الشمالى الذى يطوق الأرض عند القطب.

وطبيعي ألا يتخيل الناس في العصور القديمة الأرض بحجمها الحقيقي، بل كانت تتخيل ذات مساحة محدودة صورها بعض الفلاسفة كقرص دائري بينما رآها البعض الآخر جسم أسطواني أو كرة ، وفى المركز دوما ما كانت توضع الشمس.

ومنذ ثلاثة آلاف ساد الاعتقاد بأن الملاحين الفينيقيين قد أكملوا رحلة بالاتجاه غربا نحو ما يعرف اليوم بمضيق جبل طارق. غير أنه قبل ذلك بتاريخ طويل كانت سفن الفراعنة تمخر عباب البحرين المتوسط والأحمر. وقد عمد الملاحون المصريون إلى الإبحار على طول السواحل القارية متحاشين التوغل في عرض البحر، بغض النظر عن تسجيل قدرتهم الفائقة في صناعة السفن الضخمة قبل ستة آلاف سنة من الآن. ولم يسجل أن سفنهم وصلت إلى الجزر الشرقية للبحر المتوسط.

وما بين الألف الثالث وحتى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد هيمنت سفن كريت بلا انقطاع على القطاع الشرقي للبحر المتوسط. وقد تجاسرت القبائل التي استعمرت جزر كريت ذات الموقع الاستراتيجي ومنذ عصر ما قبل التاريخ على البحث عن البحر المفتوح بالإبحار غربا. وليس معروفا بدقة من كانت هذه القبائل؟ ومن أين أتت؟

وترى بعض المصادر أنه قبل سكان كريت ومنذ 9 آلاف سنة مضت أبحر ملاحون من سكان جنوب شرق أوربا في البحر المتوسط متنقلين من جزيرة لأخرى وما زال من غير الواضح ما الذي دفع بهؤلاء إلى الإبحار فى البحر المتوسط، فهل كان هؤلاء في حاجة إلى ثروة بحرية مجهولة؟ ألم يكن غنى البر يكفيهم؟ الأرجح أنهم سعوا إلى مكان أفضل للعيش، أو ربما لم يتجاوز الأمر ولع المغامرة واكتشاف المجهول.

وفى واحدة من الجزر الصغيرة السابقة الذكر (جزيرة ميلوس في جنوبي اليونان) اكتشف على سطح الجزيرة زجاج بركاني بكميات كبيرة. وهو زجاج الأوبسيديان الذي كان يستخدم وقتها في صناعة نصال الرماح والسهام للجيوش. وكان الطلب وقتها على هذا الزجاج عاليا بشدة. واستمر الطلب علي الأوبسيديان لعدة آلاف من السنين تلت ذلك التاريخ.

وإلى الجنوب الشرقي من جزيرة ميلوس بنحو 75 كم تقع جزيرة تيرا (سان تورين)، بينما على بعد 100 كم الى الجنوب تقع جزيرة كريت. وكما أوضحت الحفريات الاركيولوجية فى كل من تيرا وكريت فقد عاش سكان هذه الجزر منذ 4 آلاف سنة مضت في رغد من العيش وسكينة من الحياة. والسؤال: هل شجع هذا الأمن السكان إلى التجاسر بالإبحار غربا والوصول إلى مضيق جبل طارق ومنه إلى البحر المحيط؟

بين كريت ومصر القديمة

يبدو أن سكان كريت كانوا قد عقدوا اتصالات تجارية مع المصريين القدماء في فترة بلغت ذروتها في الألف الثاني قبل الميلاد. وفيما بعد أبحروا غربا نحو صقلية وإيطاليا. وربما وقفوا على قدر من المعرفة الملاحية عن الحوض الغربي للبحر المتوسط. وحسب ما وصل إليه المؤرخ السوفيتي ماجيدوفيتش فان أول من مخرت سفنه عباب المحيط الأطلسي كان الفينيقيون (المنتمون إلى العائلة اللغوية لشعوب أسيا الصغرى). وأسس الفينيقيون في الألف الأول للميلاد مستعمرات عمرانية على الساحل الإفريقي المواجه لصقلية التي تمثلها قرطاج (في شمال تونس اليوم) وهو ما يرجّح أنهم وصلوا قبل هذا التاريخ بزمن طويل إلى مضيق جبل طارق. ولكن هل كانوا أول من عبر مضيق جبل طارق؟

اليونان وكريت والبيئة المثالية للكشوف البحرية

حسب الدلالات التي صاغها المؤرخ الإغريقي فوكيديد فان قيصر كريت المعروف تاريخيا باسم مينوس أقام أول أسطول بحري لمواجهة سطوة القراصنة. وهو ما يعد دليلا على أن التحكم في الحوض الشرقي للبحر المتوسط من ملاحة ونقل كان خاضعا لقيصر كريت. وإذا ما اتفقنا مع الدلالات التي تؤشر على أنهم سيطروا كذلك على صقلية وسردينيا وكورسيكا، فان الخروج من جبل طارق إلى البحر المحيط كان على مرمي حجر.

وإذا ما رجعنا إلى الأساطير اليونانية فان الإغريق هم ورثة الحضارة الكريتية وكانت معارفهم . حتى قبل ملحمة هوميروس . تؤكد إدراكهم لبحر كبير يقع إلى الغرب. لقد كان مدلول كلمة أتلانت يجسد معرفتهم بجبال أطلس الواقعة إلى الشمال الغربي من القارة الإفريقية وبالتالي معرفة سواحلها الشمالية في البحر المتوسط والشمالية الغربية في المحيط الأطلسي. وقد أطلق الإغريق على الصخرة التي تطل على جانبي المضيق اسم صخرة هرقل.

وهناك من الدلائل ما يؤكد على معرفة الإغريق في عهد هوميروس ببحر محيط يقع فى الغرب والشرق، الغريب فى الأمر هو لماذا لم يكتب عن ذلك الجغرافي الشهير هيرودوت؟

أغلب الظن أن هيرودت . رغم معرفته الظنية بالبحر والمحيط . كان من التحري العلمي الذي جعله لا يكتب إلا ما رأته عيناه متحاشيا سرد معلومات اسطورية أو غير موثوقة، وهو الذي قد ركز رحلاته وأسفاره في البر بعيدا عن السواحل البحرية.

وقد تخيل العلماء في عهد هوميروس الأرض التي نعيش عليها كقارتين كبيرتين يفصل بينهما البحر المتوسط وتغسل أطرافها من جميع الأطراف مياه البحر المحيط.

ويرجع التشوش في المعلومات التي بين أيدينا عن الكشوفات الجغرافية الى السرية التى ضربت حول هذه المعلومات. وكانت السرية نوعا من المحافظة على حرفية الرحلات الجغرافية تفاديا لتسرب هذه المعلومات إلى الجيران فيقع الصدام والتنافس معهم. بل إن هناك معلومات سربت عمدا خلال هذه الفترة التاريخية تخيف من البحر المليء بالأهوال والمهالك حتى لا تتجرأ الشعوب الأخرى على تجربة الملاحة بما أذيع عن البحر الذى لا ينتهي والحيوانات البحرية المتوحشة التي تنقض على السفن فتفترس بحارتها، وعن الشمس التي تتحول إلى رماد حينما تغطس في البحار الجنوبية.

وبالطبع لا يجب أن نعتمد على أشعار هوميروس كمصدر علمي صريح فهي تعطى صورة تقريبية عن إدراك الإنسان في ذلك التاريخ للأرض المحيطة به. ولكن الطريف أنها كانت اكثر دقة مما قدمته خرائط كل من هيبروس وبطليموس فيما بعد (القرن الثاني قبل الميلاد).

ولقد كتب هوميروس عن البحر المحيط الذى يغسل القارات من كل جانب بينما لم تدرك كتابات هيبروس وبطليموس هذه الحقيقة. فتبعا لهذين العالمين فإن المحيط الهندي يمثل البحر المحيط باليابس (أو ما يمكن تسميته البحر المتوسط الثاني) ولم يؤمنا – أو نازعهما الشكل على أقل تقدير – بإمكانية وجود الطرف الجنوبي لإفريقيا محاطا بالماء كذلك.

ولكن لماذا وقع هذا الاختلاف؟ لماذا قدمت الملحمة الشعرية معلومات أكثر دقة من الأعمال الجغرافية العلمية؟ التفسير الوحيد هو أن الأعمال الشعرية التي قدمها هوميروس (في الإلياذة والأوديسا) كانت اكثر جرأة على التخيل بينما التزمت الأعمال العلمية التأكد والتحري، وهو ما عطل إدراكها لفكرة

البحر المحيط الذي لم تكن الرحلات الجغرافية قد تيقنت منه. هو صراع إذًا بين الفانتازيا والعمل كسبته الفانتازيا فى النهاية(*).

هذا بالإضافة إلى أن كتابات هوميروس كانت في أوج التطور العلمي للحضارة اليونانية بينما كانت كتابات هيبروس وبطليموس فى نهاية الحضارة اليونانية وما شابها من تردى انعكس على مستوى الإبداع، وهنا قد نتفق على أن الأفكار الجديدة قد لا تكون بالضرورة اكثر دقة أو إبداعا من الأفكار القديمة. بل ليس من المستبعد أن الإغريق في عهد هوميروس كانوا قد قاموا بعدة رحلات بحرية أكثر دقة من تلك التي تمت في زمن أفول حضارتهم في عهد بطليموس وهيبروس والتي ساد فيها تأثير القراصنة في حوض البحر المتوسط وعاق من حرية الملاحة.

ويفترض بعض المؤرخين والصحافيين أن المعلومات التى تحتويها بعض الملاحم كالتي كتبها هوميروس يمكن أن تكون قد استقيت من معارف مرتبطة بحضارات قديمة مختفية (على غرار حضارة أتلانتس الراقية التي حدثنا عنها أفلاطون)(**)

وفى ملحمة الأوديسا لهوميروس يمكن أن نقرأ لمحات جغرافية عن وجود أرض إلى الغرب من صخرة هرقل فيما وراء المحيط الأطلسي بقوله:

لقد أرسلك الرب إلى ما وراء الأرض
هناك في الإليسيس ستكونين

وكان هوميروس فى جزء آخر من الأوديسا قد عرّف ماذا يقصد بوراء الأرض والإليسيس بالإشارة إلى أنها "الأرض التي تهب منها رياح الغرب" المنسوبة إلى الإله زيفير حينما قال:

وهناك حيث تهب زيفير عذبة صاخبة ..ستجدين المحيط

(*) يقفز المؤلف هنا على معلومات تشير إلى أن هوميروس (الذى عاش بين القرنين 12 و9 ق.م) كان رحالة وجغرافي قبل اتجاهه الى كتابة الشعر. إذ تشير بعض المصادر الى أن هوميروس سافر الى بلاد كثيرة شملت مصر وإسبانيا وتركيا وساعدت فى بلورته لفكرة الإقيانوس أو البحر المحيط باليابس وذلك قبل أن يصاب بكف البصر فى سن الشباب فعكف على كتابة الشعر. هذا وقد كتب هوميروس ملحمتين شعريتين: **الإلياذة** وهى ملحمة حرب طروادة التي شهدتها مدينة إلياس (ومنها إلياذا) فى شمال غرب آسيا الصغرى وتقع في 9895 بيتا من الشعر، **والأوديسا** وهى ملحمة عودة البطل أوديسوس الى حياة السلام بعد حرب طروادة وتقع في 12110 بيتا من الشعر. وتناولت الملحمتان كثيرا من المعالم الجغرافية.التي اعتمد عليها سترابو الملقب بأبى الجغرافيا. راجع للاستزادة: سليمان البستاني ، بدون تاريخ ص 11، ومحمد محمدين 2001 ص81-83. المترجم

(**)يشبه فى هذا ما نقله الى العربية أنيس منصور فى كتابيه "الذين هبطوا من السماء" و "الذين عادوا من السماء" من معلومات تشى بانتقال التقدم العلمى والمعرفي لدى الفراعنة من كائنات جاءت من خارج كوكب الأرض. المترجم

من خطف أوربا؟

ما زالت الأساطير تسوقنا وتهدينا إلى معارف جغرافية، ولما لا؟ وهى الضاربة في عمق التاريخ، وفى وقت لم تكن الخريطة قد عرفت ولا البحث العلمي قد كتب ولا حتى معرفة الكتابة قد تطورت لدى عديد من شعوب الأرض. وهكذا انتقلت الأسطورة من جيل إلى جيل.

واحدة من أهم الأساطير تلك التي تحدثنا عن خطف أوربا! فالإله زيفس لم يحب يوما من الأيام القيصرة الفاتنة أوربا. كانت أوربا ابنة للملك أتشيرون ذي الأصل المصري، والذي كانت ليبيا أمه وبوسيدون أباه. استقر زيفس فى بلاد كنعان وعاش هناك في مدينة صور.

وكانت أوربا تهوى السير مع صديقاتها على شاطئ البحر(المتوسط). وهناك شاهدها زيفس وأعجب بها، وحول نفسه إلى ثور جميل ناصع البياض بقرون لؤلؤية، فتنت أوربا بالثور وقررت أن تمتطيه لتكمل سيرها على البحر. ما إن اعتلت أوربا ظهر الثور حتى اندفع بها زيفس الى البحر سابحا. وهناك رافقهما إله البحر بوسيدون.

سبح زيفس وأوربا الى جزيرة كريت وهناك انجبا ثلاثة ابناء صار أكبرهم حاكما للجزيرة. وهنا اصطحب الملاحون الكريتيون ملكهم زيفس وأميرتهم أوربا فى رحلات بحرية فى البحر المتوسط الى ان ارتحلت اوربا الى جزيرة تقع بين شمال شرق افريقيا وغرب اسيا وجنوب شرق اوربا. ووقعت هذه الاحداث فى بداية الألف الثاني قبل الميلاد.

فى تلك الأثناء كانت كريت تعيش ذروة ازدهار حضارتها وأوج سيطرة أسطولها على شرقي البحر المتوسط، وهو ما مكنها من عقد صلات تجارية مع كل شعوب المنطقة، فاستعانوا بثمار الحضارات المعاصرة وعلى رأسها الحضارة المصرية وحضارات الشرق الأدنى. ولم يتمكن أحد وقتها من منافستهم في الملاحة البحرية.

وهكذا تقدم ملحمة زيفس معلومات وافرة عن مصر وأرض كنعان وكريت وآسيا الصغرى. وبدرجة عالية من الثقة يمكن القول إنه فى ذلك الوقت . نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد . ظهرت مسميات آسيا وأوربا ليشيرا إلى جزأين رئيسيين من الدنيا المعروفة. فآسيا استمدت اسمها من "آسور" (الحضارة الآشورية). ومن المقترح أن الآشوريين هم أيضا من أطلقوا على أوربا اسم "يوروب" والتي تعنى الغروب حيث موقعها في غرب آشور. وبالتالي فكأن اسم القارتين ينبع من مركزية العالم

بالنسبة للمصريين أو لحضارات آسيا الصغرى وكريت ثم اليونان فيما بعد. والآن جاء دور الحديث عن من هيمن على الملاحة في البحر المتوسط بعد سكان كريت، نهني الفينيقيون.

الفينيقيون وكشف غرب إفريقيا (رحلة هانون)

تختلف قيم الأشياء "النفيسة" من شعب لآخر. فمن يبرر ذلك الشغف الإنساني بمعدن لا يفيد في أى استخدام سوى التحلي به كالذهب: لون اصفر وتشكيلات تجعله أغلى المعادن. غير أن الذهب لم يكن في كل المراحل التاريخية بنفس قيمة الأرجوان المستخدم في صبغ الأقمشة والمنسوجات. فقد كان صنع جرام واحد من صبغة الأرجوان يستلزم استهلاك آلاف الرخويات الحاوية للأرجوان.

كان الفينيقيون الشعب الذي احتكر أسرار استخراج الأرجوان وصناعات الأصباغ، واقتصرت معرفة خباياه على عدة أسر عاشت في مدينة صور الساحلية حالت دون انتقاله إلى غير الفينيقيين. وبعد سقوط كريت أصبح الملاحون الفينيقيون سادة البحر المتوسط وجلبوا من أقاصي هذا البحر إلى بلادهم كل نفيس ونادر من التحف والنباتات والمعادن والحيوانات. وفى المقابل باعوا لجيرانهم مصنوعات من حرف يدوية مبهرة كتحف التزيين وعقاقير للعلاج وبهارات الأطعمة وحفظ اللحوم.

ومع بداية الألف الأول قبل الميلاد كان البحر المتوسط قد صار مدروسا ومعروفا للفينيقيين الذين أرسوا مجموعة من المستعمرات على سواحله. وحان الوقت لتجديد الفكر الفينيقي بالسعي إلى ما وراء البحر المتوسط. واستمر الفينيقيون يشيعون القصص والحكايات التي نجحت في تخويف الشعوب المجاورة من مغبة الملاحة في بحر تنقض فيه الوحوش على السفن والملاحين فتقتلهم رعبا، ومن ينجو منهم ويطمع في الوصول غربا بعيدا عن البحر المتوسط سيصل إلي نهاية الماء حيث تسقط سفينته في هوة عميقة من جرف هار.

ونجح الفينيقيون في الوصول غربا في المحيط الأطلسي اعتقادا بان أرضا ما توجد في عرض البحر وربما سبقهم إليها الكريتيون. وتمكن الفينيقيون من الوصول إلى جزر ماديرا (في القرن السابع قبل الميلاد) وإلى جزر كناريا (في القرن السادس قبل الميلاد) حيث وجدوا مزيدا من الرخويات النافعة لصناعة الأرجوان وأخشاب للزينة قطعوها من أشجار نادرة تسمى "أشجار التنين".

وكانت المحطة الأساسية التي أتى منها الفينيقيون إلى جزر كناريا وماديرا هي مستعمرة قرطاج على الساحل الأفريقي، والتي تمكنت سفنها من الهيمنة على الحوض الغربي للبحر المتوسط. وحينما تجرأ المستوطنون الفينيقيون في جزر كناريا من تحقيق حركة ملاحية مستقلة ضربهم القرطاجيون دون تردد لضمان احتكار الملاحة البحرية.

خرجت بعثة بحرية ضخمة من قرطاج فى عام 525 قبل الميلاد مؤلفة من 60 مركبا على كل منها 60 ملاحا وعلى رأسها كان الضابط البحري هانون الذي قادة البعثة نحو الساحل الغربي لإفريقيا فتمكن من الوصول لنهر السنغال ومنه إلى حيث سيراليون حاليا. وجمع من كل المواضع التي مر بها عينات من الأخشاب والنباتات والمعادن. وبالاتجاه شرقا من سيراليون انتظر القرطاجيون أن ينتهي اليابس ليدوروا معه نحو الشمال مرة أخرى ، إلا انهم وجدوا يابسا جديدا يمتد من الشمال للجنوب عند زاوية خليج غانا فأيقنوا أن المقصود ما زال بعيدا فعادوا إلى قرطاج.

ومن الدلائل على هذه الرحلة ما وجد من أثار حجرية نقش عليها جزء نصوص لما شاهده هانون في الرحلة وقد جاء فيها:

" نسير بنجاح، نبحر أمام بلاد شديدة الحر (يتحدث هنا عن أرض السنغال)، تنبعث منها روائح عطرة، تخرج منها تيارات من اللهب إلى البحر، لا يمكننا الدخول إليها من شدة اللهب. ...تجاوزنا هذه الأرض بنجاح ولكن بعد خوف وقلق، فقد مرت أربعة أيام كنا نرى فيها الأرض قطعة من السعير، بدا لنا مصدر هذا الحر واللهب جبل في وسط البلاد اسمه "عجلة الآلهة". وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى خليج شديد اسمه خليج "القرن الجنوبي" (يقصد هنا خليج غانة) وفى قلب الخليج كانت هناك جزر ...الناس بدائيون للغاية، كانت أغلبهم من النساء، أجسامهن يغطيها الشعر الكثيف، وقد اسماهم المترجم "الغوريلا"، رأينا رجالا ولكنهم هربوا منا وألقوا علينا الحجارة. أسرنا ثلاثة نساء لكنهن قاومونا بشدة بالعض والضرب فلم نتمكن من إخضاعهن إلا بالقتل ونزعنا منهن جلودهن إلى قرطاج. لم يعد فى وسعنا إكمال المسير إلى الجنوب بدأنا في العودة إلى الوطن"

ما زال هذا النص محفوظا على صخرة في معبد ميلكارتا في قرطاج ولم يكن يطلع عليها سوى صفوة رجال الحكم. وقد تمكن الرومان من كشف معلومات هامة عن هذه البعثة وكان أكبر كشف لها بعد أن حطم الرومان قرطاج فى عام 201 قبل الميلاد. حينها تشكك الرومان في حقيقة معلومات البعثة واعتبروها أسطورة وليست حدثا حقيقيا وخاصة ما يتعلق منها بالجبال التى يخرج منها اللهب إلى البحر، والناس البدائيين الذين يغطى أجسامهم الشعر الكثيف.

ولم يتعرف الإنسان على حقيقة الغوريلا التي كتب عنها هانون إلا في القرن التاسع عشر الميلادي حينما درس هذا الحيوان في الجابون. أما جبال النار فقد تحقق منها الباحثون في عام 1922 حينما ثار بركان جبل الكاميرون الذي يرتفع عن سطح البحر بمنسوب 4000 متر.

الدوران حول إفريقيا (بعثة الفرعون نخاو)

من بين كافة قارات العالم تعد إفريقيا ذات مكانة خاصة بما احتوته من حضارات ومعارف ضاربة فى التاريخ. وكانت أول الأراضي التى التفت إليها الرحالة بهدف الاستكشاف. وكما هو معروف لم توغل الاستكشافات الجغرافية فى القارة بسبب الإعاقة التى مثلتها الغابات المدارية أمام جهود المصريين لكشف القارة إضافة الى أن أجزاء كبيرة من شمالي القارة ظلت مجهولة لقسوة الظروف الصحراوية التى ألمت بها وفشلت فى جذب الرحالة إليها.

وقعت مصر بعد العهد الذهبي للرعامسة (رمسيس الأول والثاني) للاحتلال الآشوري. وأهملت القناة التى شقت فى عهد رمسيس الثاني لربط النيل بالبحر الأحمر. ومرت قرون متتابعة قبل أن يتمكن المصريون من طرد الآشوريين.



الفرعون المصري نخاو

وفي القرن السابع قبل الميلاد بدأت مصر فى استعادة استقلالها. ففى عام 609 قبل الميلاد أصبح نخاو فرعونا لمصر، وشرع يدعم دولته اقتصاديا واجتماعيا وبدأ فى استعادة العمل فى قناة البحر الأحمر. انخرط فى أعمال القناة عشرات الآلاف من السكان أغلبهم بالسخرة واستمر العمل لعدة سنوات، أزالوا الرمال من القناة بعد قرون من الإهمال وشق الخطوط من جديد. غير أن خمسة عشر سنة هى حكم نخاو لم تكن كافية لاتمام هذا العمل الضخم. وقد كتب هيرودوت الذي زار منطقة القناة بعد 150 سنة من ذلك التاريخ الذي كان نخاو يحكم مصر وعلق بالقول "إن القناة من الطول بحيث تستغرق الرحلة عبرها إلى البحر الاحمر أربعة أيام ومن الاتساع بحيث يمكن أن تمر مركبتان كبيرتان إلى جوار بعضهما."

والسؤال : ما الذى دفع الفرعون نخاو الى ذلك العمل الصعب وهو الذى لم تكن دولته قد استعادت عافيتها بعد؟ ما الذى كان يغريه فى البحر الاحمر ليقوم بهذا العمل؟

لقد كان هدفه الوصول الى بلاد "أوفير" (يرجح أن بلاد أوفير كانت فى جنوب غرب الهند أو فى جنوب شرق إفريقيا) وهى تلك البلاد التي كان أسلافه من الفراعنة يجلبون منها الذهب، وهو هدف يدعم الاقتراح المطروح بأن نخاو كان صاحب أول بعثة تدور حول إفريقيا.

ولكن قبل هذا، من أين عرف نخاو بأن حول إفريقيا بحر محيط؟ وهل كان هدفه إثبات هذه الفرضية العلمية؟ أكان منشغلا بهذا حقا؟ هل كان يسعى لأن يسطر اسمه بأحرف من نور فى التاريخ، على نحو ما ذهب العالم الألماني إريك راكفيتس؟ يبدو أن الأحرف من نور تسجل بضم الممالك والعبيد وتوسيع حدود الدولة المصرية وليس البحث عن البحر المحيط.

على أية حال فإن نخاو بدلا من أن يرسل سفنه من البحر المتوسط إلى مضيق هرقل (جبل طارق) ومنه إلى بحر الظلمات للوصول إلى بلاد "أوفير" اختار أن يسلك طريقا آخر، فرأى أنه من الأفضل الاتجاه من النيل إلى البحر الأحمر ومن هناك الوصول إلى الغرب من الشرق عبر السواحل الأفريقية؟

تشير الدلائل إلى أن نخاو كان على علم بأن البحر الأحمر يوصله إلى الخليج العربي الفارسي (العربي) والهند ومن ثم فإن البحر الذى يحمله إلى هناك يمكن أن يحمله عبر إفريقيا إلى بلاد غنية بالذهب.

نود أن نؤكد هنا أن نخاو مثله مثل الإسكندر المقدوني لم يكن هدفه من تلك الأراضي الشاسعة التي فتحها معرفة جغرافية أو ولعا بالاستكشاف، بل كان مشغولا فقط بتقوية الدولة وتدعيمها اقتصاديا.

حسنا! لماذا اتجهت بعثة الفرعون نخاو الدورات حول إفريقيا؟ ما هو الهدف؟ للأسف ليس لدينا إجابة عن هذا السؤال! وإذا ما صدقنا ما قاله هيرودوت فإن هذه الرحلة لم تترك أثرا ولم يكن لها ثمرة نافعة يمكن أن يتذكرها الناس بها. غير أن الأمر يمكن أن يكون بسيطا للغاية، فلم يكن الملاحون المصريون وزملاؤهم الفينيقيون الذين رافقوهم فى الرحلة يودون أكثر من عقد صفقات تجارية مع بلاد "أوفير" لنقل الذهب إلى مصر، هذا إذا ما وضعنا فى الاعتبار أن هدف رحلة ضخمة مثل هذه الرحلة كان قاصرا على الصفوة الحاكمة والكهنة.

وإذا رجعنا الى ما قاله هيرودوت فى هذا الشأن لوجدنها يقول: " تبدو ليبيا (يقصد إفريقيا) كروية تحيط بها المياه من كل جانب عدا ذلك الجزء الذى تتصل فيه بآسيا، وأول من أثبت هذا، على حد علمنا، هو الفرعون نخاو. فيعد أن شق قناة بين النيل والخليج العربي (يقصد البحر الاحمر) عهد الى الفينيقين بالإبحار بشرط أن يعودوا إليه من مضيق هرقل (جبل طارق) فأبحر الفينيقون عبر البحر الإريتري وتوغلوا الى البحر الجنوبي من إفريقيا. وكانوا قبل مجيء الخريف يلجأون إلى السواحل، وما من مكان فى ليبيا الا وبذروا فيه الأرض وانتظروا الحصاد، وبعد أن يحصلوا على القمح يكملون طريقهم. وهكذا مرت سنتان ووصلت فى العام الثالث مراكبهم إلى مضيق هرقل وعادوا الى مصر"

وهنا نجد أن الجغرافي العظيم هيرودوت يمرر معلومة خاطئة، ففى المناطق المدارية لا يوجد خريف كالذى تعرفه أوربا التى أتى منها هيرودوت / وكان فى وسع الملاحين أن يبذروا ويحصدوا فى أى موسم.

أما موضوع الحصول على الطعام فلقد كان الساحل الإفريقي عامر بالسكان فى ذلك التاريخ وكان فى مقدور الملاحين أن يستبدلوا الطعام بالسلع التى بحوزتهم سلما، أو يحصلوا عيها بالقوة إن أرادوا. ربما توقفوا لفترات أطول فى محطات كانوا يتأملون فيها أين هى تلك البلاد المليئة بالذهب.

وحسب المدة التي ذكرها هيرودوت فان هذا يعنى أنهم كانوا يقطعون 20 كم فى اليوم. وبعد ان تخطوا خط الاستواء من الضرورى انهم وجدوا التيار المحيطي يدفعهم نحو الجنوب فى يسر فساروا معه حتى وصلوا إلى جنوب القارة فداروا معها مستفيدين أيضا بالتيار المحيطى المتجه نحو خط الاستواء فى يسر وكانت نقطة الصعوبة الرئيسية هى العودة على الساحل الغربي لإفريقيا حيث عاكستهم الرياح الشمالية الشرقية.

ننتقل هنا الى معلومة مهمة أوردها هيرودوت حينما قال :

" وقد حكوا لى أيضا ما لا يصدقه مثلى وربما صدقه آخرون، وهو أن الملاحين خلال إبحارهم حول ليبيا رأوا الشمس من الجانب الأيمن" (**)

ولو تخيلنا الموقف سنجد على خط الاستواء تقف الشمس فوق الرؤوس وقت الظهيرة، ومنها اتجه الملاحون جنوب خط الاستواء وهنا كانت الشمس تشرق من على يسارهم ، وبعبورهم الطرف الجنوبي لافريقيا اتجه الملاحون عكس طريقهم السابق فصاروا يتحركون من الجنوب للشمال وهنا كانت الشمس تشرق من على يمينهم بالفعل، وهى المعلومة التي رفض هيرودووت تصديقها. ولم يكن هيرودوت ولا البحارة على معرفة بأنهم عبروا منطقة تسمى خط الاستواء ولا أنهم انتقلوا الى نصف الكرة الجنوبي، فقد كان العالم المعروف هو العالم فى الشمال.

لم تكن رحلة الفرعون نخاو أول رحلة تكتشف المحيط الجنوبي ونصف الكرة غير المعروف جنوب خط الاستواء فحسب، بل كانت أول رحلة معروف تاريخها بدقة (597–594 قبل الميلاد أي أنهم عادوا إلى مصر فى العام التالي لوفاة الفرعون نخاو نفسه).

وعلى خلاف ما يعتقد بأن الرحلة كانت تهدف الى الوصول إلى بلاد الذهب (فى جنوب شرق افريقيا أو جنوب شرق الهند كما اعتقد البعض) فإن الرحلة . أخذا في الاعتبار أنه لم يذكر عنها فى التاريخ المصري الكثير عما حققت من مكاسب اقتصادية أو نقل للذهب . فإنها تكون بلا منازع رحلة علمية استكشافية بحتة.

(**) بمراجعة خريطة هيرودوت يتضح لنا أنه لم يتخيل امتداد افريقيا الى جنوب خط الاستواء ، فلم يكن فى خريطته رسم لنصف الكرة الجنوبي. وفى خريطة هيرودوت يبدو جنوب افريقيا ممتد من الشرق للغرب ومن ثم فان ما انتظره هيرودوت هو ان تشرق الشمس من وراء ظهورهم وليس من على يمينهم. المترجم

الفايكنج فى شمال الأطلسي

جرينلاد "الأرض الخضراء"... يالها من تسمية غريبة لا تستحقها تلك الجزيرة الجليدية البيضاء! ألم يكن من الأصح تميتها "آيسلند" أى ارض الثلوج؟ لعلها إحدى المفارقات الجغرافية الشهيرة. وإذا أردنا الدقة، ولو رجعنا إلى أصل الاكتشاف ، فقد نفاجأ بأن الاسم على مسمى وله مبررات منطقية.

كان شمال غرب أوربا (اسكندنافيا) في مطلع العصر الحديث قد استعمر واكتشف بهمة وعزيمة رجال جسورين أقاموا مستعمرات سكنية ضخمة اعتمدت على الرعي والزراعة وصيد البر والبحر في هذا الجزء القاسي من القارة. غير أنه وبغض النظر عن هذه الجهود فان أرض اسكندنافيا لم تكن كلها صالحة لتوسع هذه النشاطات مع تزايد أعداد السكان الذين وقعوا فى شجار ومعارك فيما بينهم على الأرض والكلأ. أدرك الشباب أنه لابد من الخروج إلى أرض بكر يجدون فيها فرصة أفضل للحياة وامتهن بعضهم السطو والقرصنة البحرية وعرفوا منذ ذلك الحين باسم "الفايكينج".

فى البداية كان هدف الفايكينج العثور على أرض جديدة يعمرونها، ولكن رحلاتهم في الجنوب والغرب اصطدمت بيابس مستعمر بالفعل في الجزر البريطانية وأيرلندا وعلى السواحل الغربية لأوربا. ولم يكن بوسع الفايكينج فى هذه الحالة سوى شن هجمات للسلب والنهب. وعانت الجزر البريطانية من قسوة هجمات الفايكينج فاضطر بعض الرهبان الأيرلنديون سعيا وراء حياة آمنة مسالمة إلى الهروب إلى جزر جديدة لا يسكنها أحد.

وحسب ما دونه المؤرخ الأيرلندي في العصور الوسطى فانه في نهاية القرن الثامن الميلادي وصلت مجموعة من الرهبان إلى جزيرة غير مأهولة إلى الشمال الغربي من أيرلندا وكانت هذه الجزيرة هي أيسلندا. عاد بعض الرهبان بعد فترة وبقيت الأغلبية.

تعرضت سفن الزعيم نادود – أحد زعماء الفايكينج – المتجهة إلى جزر فاروس للانحراف عن مسارها فاتجهت (بدلا من الجنوب الغربي من النرويج إلي فاروس) نحو الشمال الغربي تجاه جزيرة جبلية تغطيها الثلوج فأسماها نادود جزيرة أيسلندا (هى ذاتها التي سبقهم إليها الرهبان الأيرلنديون). وسرعان ما اكتشفت جزيرة أيسلندا مجموعة أخرى من الفايكينج تابعة للزعيم غاردار، ورغم أن أيسلندا بدت للزعيم نادود جزيرة خضراء من الجيل للبحر وقت اكتشافه لها فانه أطلق عليها أيسلندا (أرض الثلوج) حتى لا يلفت إليها انتباه جماعات الفايكينج الأخرى.

اضطر الرهبان الأيرلنديون مع وصول جماعات الفايكينج إلي مغادرة الأرض التي وطأتها أقدام وثنية (الفايكينج) تاركين وراءهم كتبهم وأجراس كنائسهم. غير أن شتاء ذلك العام كان قاسيا للغاية فماتت ماشية الفايكينج واضطروا إلى العودة إلى ديارهم في النرويج. لكن لم يمنع هذا من أن تصبح أيسلندا

محطة للهجرات من النرويج، فتزايد سكانها مع تمكنهم من تنظيم حياة الرعي والزراعة بل وإقامة حكومة تنظم الشؤون الإدارية فشكلت أول برلمان عرفه العالم لاحقا.

وتمضى السنون، ويقوم أحد ملاك الإقطاعيات في أيسلندا ويدعى "إيريك" خلال مشاجرة مع جيرانه بقتل اثنين منهم فيحكم عليه بالنفي لمدة ثلاث سنوات خارج أيسلندا. فخرج مع إيريك أهله وعشيرته عام 981 على مركب لم تحدد وجهتها، ففي الشرق كانت النرويج التي طرد منها والد إيريك من قبل . لجريمة قتل مشابهة . وفى الجنوب لن يرحب بهم في بريطانيا وايرلندا. قرر إيريك وعشيرته البحث عن جزيرة لا يسكنها أحد في البحر الغربي الذي يقول البحارة عنه أن به أراضى غير معلومة.

اتجه مركبهم إلى الغرب فوصلوا في الصيف إلى جزيرة غطت الخضرة سواحلها فساروا بمحاذاة شاطئها الشرقي بنحو 600 كم حتى وصلوا إلى النهاية الجنوبية لها فضربوا خيامهم وأطلقوا عليها اسم الأرض الخضراء "جرينلاند" طمعا في أن يغرى اسمها آخرون فيأتون لتعميرها.

وبعد أن انقضى الشتاء الأول لعشيرة إيريك شرعوا في استكشاف الساحل الغربي للجزيرة بمسافة تبلغ نحو 600 كم أخرى. أدرك الجميع أن الأرض قاسية بحيث من الصعب إغراء الناس بالاخضرار الصيفي الذي يطوق سواحلها فقط . عاد إيريك بعد انقضاء سنوات النفي إلى أيسلندا وحدّث الناس فاتبعته جماعات كبيرة أغراها الاسم كما أغراها حقيقة وقوع السواحل الجنوبية لجرينلند في عروض جغرافية اكثر جنوبية من تلك التي يعيشون فيها في أيسلندا.

وهكذا نجح إيريك في أن يصحب معه في عام 985 أسطولا قوامه 25 سفينة كبرى حملت الناس وأمتعتهم. غير أن الرياح أتت بما لم تشته السفن. فهبت عاصفة حطمت وأغرقت بعض السفن فاضطر البعض للعودة ونجح 400-500 فرد في الوصول إلى جرينلاند في مكان اختاره إيريك على الطرف الجنوبي للجزيرة.

وسرعان ما بدأت الحياة تستقيم على الجزيرة فنمت أعداد الأسر في القرن الثامن الميلادي إلى عدة مئات وأقاموا خطا للاتصال مع أيسلندا يجلبون منها الغلال والمصنوعات الحديدية والمصنوعات الخشبية للبناء وفى المقابل كانوا يقدمون لأيسلندا الحيوانات البحرية النادرة كالبط البحري والحيتان وجلود الحيوانات البحرية.

ومضت الحياة هنيئة حتى القرن الرابع عشر حينما تعرضت جرينلاند لموجات من البرودة المتتالية أهلكت الإنسان والماشية. وفسر بعض الجغرافيين ما حدث بعصر جليدي مصغر. وإن لم توجد أدلة على وقوع هذه الظاهرة على مستوى الكرة الأرضية ككل. ورافقت التغيرات البيئية في جرينلاند تغيرات سياسية في شمال غربي أوربا. فها هي أيسلندا تفقد استقلالها السياسي وتخضع لسيطرة النرويج في عام 1281 م.

وتنقطع الصلات المباشرة بين جرينلاند وأيسلندا. وفى خلال قرن من ذلك التاريخ تتمكن الدانمارك من بسط نفوذها على النرويج. أما من تبقى في جرينلاند فوقع في اشتباكات على الموارد مع الإسكيمو سكان الجزيرة الأصليين. ولم يسمح الدانماركيون بوصول السلع إلى جرينلاند إلا بمعدل سفينة واحدة في السنة مع احتكار علاقتها بالتجارة مع أي من الجزر الأخرى. تدهورت بالطبع حياة من بقى من النورمان فى جرينلاند ومن لم يمت منهم اندمج وذاب مع الإسكيمو. وهكذا لعبت الظروف السياسية دورها الكبير في تدهور الحياة في جرينلاند بدرجة اكبر مما لعبته الظروف البيئية.

لا جديد تحت الشمس ..قبل كولومبوس جاء الفايكنج

إذا ما ألقينا نظرة على خريطة المحيط الأطلسي الشمالي لن يكون من الصعب معرفة إلى أي مدى قريب هو موقع جنوب غرب جرينلاند من شمال شرق أمريكا الشمالية بما لا يزيد عن 500 كم (على الطريق القطبي) أو 900 كم على الطريق البحري من يابس جرينلاند الجنوبي. فهل تمكن الفايكينج الجسورين من الوصول إلي أمريكا الشمالية.

تحكي إحدى أساطير الفايكينج التي انتقلت من جيل إلى جيل عبر القرون الماضية عن بطلهم "بيارني" ما يلي:

" دعا بيارني الناس في أيسلندا إلى رفقته لاستعمار جرنيلاند، حيث الأمل في أرض افضل وأكثر اتساعا وخصوبة، اتبعه كثيرون، مرت سفنهم ثلاث ليال في طريقها إلى جرينلاند فعاكستهم الرياح وهيمنت على البحر الغيوم. لم يعد في وسعهم معرفة موقعهم وهاموا في البحر عدة أيام قبل أن تشرق الشمس من جديد. فتحوا أشرعتهم وأبحروا من جديد، وبعد يوم وليلة أبصروا اليابس. استبعد بيارني أن تكون هذه الأرض جرينلاند فهنا الغابات تغطى كل مكان وليس الجبال والجليد. عاود بيارني ورفاقه الإبحار في البحر المفتوح لثلاث ليال أخرى مستفيدين بالرياح الجنوبية الغربية فوصلوا إلى الأرض التي تاهوا عنها: جرينلاند"

في القصة السابقة – والتي حكيت لأول مرة في القرن الثامن – يمكن تقدير حرفية الفايكينج البحرية بتحديد المواقع والاتجاهات بما قد يدعم ما يطرحه بعض الباحثين من أنه كانت لديهم بوصلات أولية ساعدتهم في رحلاتهم. واستخدام بلور شفاف عرف تاريخيا باسم الفلسبار الأيسلندي الذي يمكن من خلاله رؤية الشمس وتحديد موقعها في الأجواء الغائمة.

وهكذا فان بيارني وزملائه وصلوا الى جزر فى الأطراف الشمالية الشرقية لأمريكا في عام 985 قبل أن يصل كولومبوس إلى أمريكا بنحو 500 سنة!

شاعت قصة بيارني بين الفيكينج الذين اقتنعوا بأن اسم جرينلاند ليس اسما على مسمى، فهناك جزر أخرى تغطيها الخضرة بشكل حقيقي وهو ما أغرى مغامر مثل لايف (الملقب بسعيد الحظ) لأن يبحر نحو جزر الغابات التي حكى عنها بيارني.

قام لايف برحلته فى عام 1000 التي تحكى عنها إحدى سرديات الفايكينج فتقول:

" صعد لايف و35 من زملائه على السفينة وكان معهم أحد الألمان واسمه تيوركر، تحركت سفينتهم قاصدة الأرض التي حكى عنها بيارني فحطوا رحالهم. لكنهم بدلا من أن يجدوها جزيرة مغطاة بالغابات نزلوا بجزيرة صخرية ملساء فأطلق عليها لايف اسم "فنلند" أى أرض الجلاميد. عادوا إلى سفينتهم بحثا عن الأرض التي حكى عنها بيارني فوجدوا جزيرة تغطيها الغابات والصخور والمضاحل المائية فأسماها لايف "ماركلاند" أي أرض الغابات. عادوا إلى سفينتهم وأبحروا يومين آخرين مستعينين برياح شمالية شرقية فمروا في مضيق بين عدة رؤوس جبلية لمجموعة من الجزر، وهناك عثروا على جزيرة يجرى بها نهر ينبع من بحيرة فحطوا رحالهم بساحلها. قرر لايف وزملاؤه أن يقضوا الشتاء على هذه الجزيرة فبنوا بيتا كبيرا واصطادوا الأسماك الحمراء الرائعة من البحيرة والنهر، وكانت هذه أول مرة يمضي بهم شتاء لا يشغلون بالهم بتوفير الكلأ للماشية"

وحسب تفسيرات هذه الأسطورة فان لايف وزملاؤه قد حطوا على جزيرة لبرادور أو جزيرة نيوفوندلاند.

عاد لايف وزملاؤه إلى جرينلاند بحمولة عامرة من أخشاب الأشجار النادرة. وفى العالم التالي قام شقيق لايف برحلة مرت بنفس المسار السابق واصطدمت أول مرة بالسكان الأصليين لهذه الجزر من الإسكيمو والهنود وأطلق عليهم الفايكينج مسمى "التافهين الدميمين".

وفى أسطورة لايف وصف تفصيلي لهؤلاء السكان ببشرتهم السمراء وشعرهم الطويل وعظام وجوههم الكبيرة وعيونهم الواسعة (فى تمييز عن الإسكيمو النورمان بعيونهم الضيقة) وملامحهم القاسية. وكيف أنهم كانوا يمنحوهم الفراء الثمين مقابل الأقمشة الملونة الحمراء، كما أنهم لم يكونوا يعرفوا الحديد. وحوت الأسطورة على سرد بأسماء حيوانات المناطق الجديدة كالثعلب والدب والطيور المائية.

وفى كل من رحلتى بيارني ولايف نجد أنفسنا أمام معلومات جغرافية متكاملة (طبيعية وحضارية) لرصد اكتشاف جغرافي متكامل. وهو ما يميز معلومات الفايكينج عن ذلك الشغف التجاري والاستعماري والتبشيري الذي لجأت إليه رحلات كولومبوس ومن تبعه إلى العالم الجديد.

تستكمل الأسطورة حكايتها بالمصير المشؤوم الذي لقيه الفيكينج فى صراعهم مع السكان الأصليين فجرح وقتل منهم الكثير. ولم تفلح الحملة الثالثة التي قام بها إريكسون الشقيق الثالث لـ "لايف" فى إقامة مستعمرات في العالم الجديد بل إن حملته عادت بدونه، فقد مات في طريق العودة.

وفى عام 1007 أرسل إلى جزيرة فنلند أسطول بحري من أربع سفن على متنها 160 رجل وامرأة وعشرات من الحيوانات المستأنسة بزعامة كارلسيفني وأقاموا علاقات تجارية مع السكان الأصليين. غير أن الأمر انتهى بالصدام بين الوافدين والأصليين. وتحت غارات أصحاب الأرض سقط كثيرون صرعى، وعاد الى جرينلاند الباقون.

وقد اكتشف الأركيولوجيون مؤخرا آثار الفايكينج النرويجيين في جرينلاند وجزر شمال شرق أمريكا الشمالية وخاصة جزيرة نيوفوندلاند. غير أن كل ما عُثر عليه لم يزد عن كونه "آثار". إذ لم ينجح الفايكنيج في ترك مستعمرات تقاوم إلى العصر الحديث. ولكن الثابت أن كثيرا من حكايات وأساطير الفكينج وصلت إلى إسبانيا والبرتغال وشجعت كولومبوس على رحلته الجريئة تجاه الغرب.

وإذا ما كانت الأقدار قد ساعدت الفايكينج في إقامة مستعمرات ناجحة في أمريكا الشمالية لكان تاريخ شمال غرب أوربا قد تغير رأسا على عقب. وفى مقدمته ازدهار حياة الفايكينج وعدم اندثار حضارتهم، وتنامي قوة النرويج وترابط خطوط الاتصال البحري بين جرنيلاند وأيسلند والدانمارك.

الصينيون ..ما عندنا أرقى وما عندهم لا يشغل البال

كان لدى الأوربيين في العصور الوسطى أسوأ تصور ممكن عن أوراسيا. فقد انعكست معرفتهم المحدودة في خرائطهم التي أظهرت آسيا الصغرى بحجم ضخم بينما تم تقليص حجم آسيا الوسطى وشرق آسيا بدرجة خاطئة. أما الأطراف الشمالية الشرقية لآسيا فلم تكن لديهم عنها أية معلومات.

هذا على الرغم من أن الصين فى ذلك الوقت كانت أكبر الدول سكانا ومساحة. فقد امتدت من منشوريا الى فيتنام وكان طريق الحرير العظيم يربطها بآسيا الوسطى وأوربا.

تمكن الملاحون الصينيون من الإبحار على طول السواحل الشاسعة لجنوب شرق وشرق آسيا قاطعين مسافة هائلة تمتد من المحيط الهادئ إلى الهندي. وارتبطوا تجاريا بدرجة شبه منتظمة مع الهند رغم الصعاب الكثيرة التي واجهت سفنهم.

وواكب الاهتمام بالرحلات البحرية الاهتمام بالرحلات البرية التي اعتنى بها حاكم الصين في القرن الخامس قبل الميلاد "مو فان" والذي ترأس رحلة اتجهت إلى جبال "كون لون" ومنها إلى الشمال. وكما تقول الحكايات الصينية فإن "مو فان" أراد أن يسافر إلى كل الدنيا بحيث لا تكون هناك أرض لا تطأها سنابك خيله ولا مكان لم تجر عليه عجلاته. وتكمل الحكايات أن "مو فان" بعد أن أكمل رحلته تمكن من هزيمة قبائل "الهن" وأسر خمسة من ملوكهم. ومن ثم فلم تكن هذه رحلة سياحية ولا استكشافية وإنما حربية

بالمعنى المتكامل. وهكذا ساعدت الرحلات البحرية الصينية تطويرهم البوصلات البحرية وتمكنت رحلاتهم الطويلة من معرفتهم لفكرة كروية الأرض.

ولعل واحدة من أشهر الرحلات البحرية إلي الهند رحلة الراهب البوذي "إى تزيان" الذى أبحر على طول سواحل الهند الصينية ومضيق مالاقا ووصل إلي سومطرة واستقر فى جنوب شرقي جزيرة سومطرة حيث المدينة الشهيرة شريفاجدي (تعرف اليوم فى إنودنيسيا باسم باليمبانج) لعدة أشهر يتعلم اللغة السينسيكريتية والتعرف على الأدبيات البوذية. ومن مضيق مالاقا رحل على مركب تجارية إلى المحيط الهندي فقطع خليج البنغال ووصل الى دلتا الجانج. وبعد أن زار المقدسات البوذية فى الهند عاد الى الصين بنفس الطريق البحري وترك وراءه سجلا برحلته التى استغرقت ست سنوات بين عامي 689 و 695 ميلادية.

وفى العصور الوسطى كان مألوفا أن تمخر السفن الصينية عباب المحيط الهادي والهندي حول جزر الفلبين وإندونيسيا والهند وسيلان ووصلت إلى البحر العربي وسواحل شرق إفريقيا. وكانوا يبيعون الحرير والخزف والمعادن ويجلبون إلى بلادهم الذهب والتوابل وقرون العاج وأنياب الأفيال والأخشاب الثمينة.

ولعل واحدة من أشهر وأضخم الرحلات البحرية الصينية في العصور الوسطى تلك التي ترأسها "تشين خو" (أحد خصيان القصر الإمبراطوري) الذي نجح في أشد الظروف الملاحية قسوة الإبحار بأسطول قوامه 317 سفينة عليها 27.000 بحار بين جندي وملاح وكارتوغرافي.

وكانت السفن الصينية في القرن 9 أضخم من نظيرتها الأوربية ولم تكن تضاهيها سفن في كفاءتها، كما كان الملاحون والكارتوغرافيون الصينيون في دقة ومهارة عاليتين. وقد سمحت هذه القدرات بأن تدور سفن تشين خو حول جزر جنوب شرق آسيا وأرخبيل الجزر الإندونيسية وجزر الملايو وربما تمكنت بعضها من الانفصال عن الأسطول وتوجهت إلى شمال غرب استراليا.

ومن الثابت في أدبيات رحلة تشين خو أنها مرت بالهندستان والخليج الفارسي (العربي) وشبه الجزيرة العربية ومرت بالسواحل الشرقية لإفريقيا، وليس من المستبعد أنهم قد مروا بالرأس الجنوبي لإفريقيا (التي أسماها البرتغال فيما بعد . في نهاية القرن 15 . برأس الرجاء الصالح) وتحوي الخرائط الصينية لعام 1420 جزءا من السواحل الجنوبية الغربية لإفريقيا.

وخلال الفترة بين عامي 1405 و1433 وحدها أتم تشين خو سبع رحلات بحرية كبرى ولم تستكمل هذه الرحلات بتوسيع حدود الإمبراطورية الصينية أو عقد اتفاقات تجارية بينها وبين العالم المحيط فقد

قدمتم هذه الرحلات إلى الحكومة الصينية نتيجة مفادها "أن ما عندنا أرقى، وما عندهم ليس فيه خيرا كثيرا يشغلنا بالبحث عنه".

من هنري الملاَّح إلى بطرس الأكبر

اكتشاف المجهول البحري



بقلم : ر.ك بالاندين، وف.أ ماركين

ترجمة : د.عاطف معتمد

نشرت الترجمة بمجلة الترجمان العدد 3 ، القاهرة يناير 2013، وتصدر المجلة عن
مركز اللغات والترجمة بجامعة القاهرة

العنوان الأصلي للدراسة:

Рудольф Константинович Баландин , В. Маркин (2004) Сто великих географических открытий. Москва, Вече.

في العدد الثاني من "الترجمان" تتبعنا رحلة الكشف الجغرافي للبحار والمحيطات عبر العصور القديمة. نكمل في العدد الحالي الرحلة في العصور الوسطى.

القبطان الذي لم يبحر..هنري الملاَّح

لم يكن الأمير البرتغالي هنري الملاَّح قد أبحر بالقدر الذي يعطيه لقب الملاَّح. ومع ذلك فإن اسمه قد حفر في تاريخ الاكتشافات البحرية بفضل جهوده فى تشجيع الملاحة والاستكشاف.

وقبل أن نبدأ حكاية هنري الملاح لابد أن نلقي نظرة على شبه جزيرة أيبيريا. كان مضيق جبل طارق يتحكم في عنق البحر المتوسط ويتحكم في الخروج منه إلى المحيط الأطلسي وهنا كان العالم العربي يتحكم في هذه البحر ويجبر الأوربيين على التقهقر إلى الشمال.

تمكن العرب في العصور الوسطى من استيعاب نتاج الحضارة الإغريقية فترجموا آداب الإغريق القدماء وخاصة أعمال أرسطو وأبدوا اهتماما عميقا بالعلوم. وفى بداية القرن الثامن تمكنوا من العبور عبر مضيق يحمل اسم قائدهم طارق بن زياد (جبل طارق) واخضعوا لسيطرتهم غالبية شبه جزيرة أيبيريا (كانوا فى نفس الوقت قد أخضعوا في الشرق آسيا الوسطى والقوقاز وفارس وأراضى ما بين النهرين وتحكموا في طرق التجارة حول البحر الأحمر والخليج الفارسي وأغلب مسارات التجارة حول حوض البحر المتوسط.

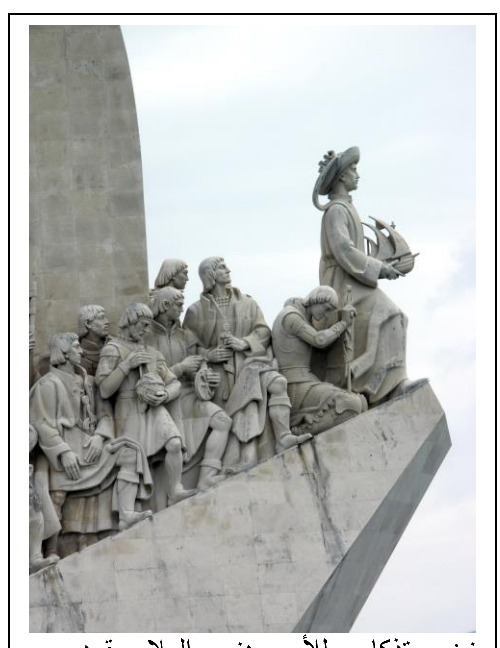
تمكن الرحالة والتجار والمبشرون والسفراء السياسيون العرب من توسيع نطاق المعرفة العربية عن البلاد والشعوب المحيطة بهم في إفريقيا وآسيا وأوربا. وهم بذلك قد جابوا كل العالم المعروف في ذلك التاريخ. ولم يكبح جماح انتشار الإسلام سوى الغزو التتري وسلسلة الحملات الصليبية التي أقنعت الشعوب الأوربية بضرورة نجدة المسيحيين فى بيت المقدس وحماية "تابوت الرب" . ولا يمنع هذا أن نتذكر أنه كثيرا ما تقف أهداف السلب والنهب خلف شعارات دينية. وكان البرتغال من الذين أخذوا على عاتقهم مجابهة المد الإسلامي. ولم تمنع هذه المقاومة من بقاء تأثير الثقافة العربية في شبه جزيرة أيبيريا حتى بعد خروج العرب منها، وإن كان هذا التأثير اكثر وضوحا في صوره الشعرية والقصصية وفانتازيا الحكايات والرحلات منه في صورة التأثير العلمي.

قابل الرحالة والتجار البرتغال صعوبات جمة في الوصول إلي البحر المتوسط بسبب السيطرة العربية. كان لابد أن تكون هناك طرق أخرى، ولكن في أي اتجاه؟ في الشمال يسيطر الهولنديون والنرويجيون والفرنسيون، في الشرق الأعداء العرب، في الغرب بحر مظلم لا يدرى أحد ماذا يخبئ وراءه. لم يتبق إلا الطريق نحو الجنوب.

الأمير هنري هو الابن الثالث لملك البرتغال خوان الأول. ثبت عن هنري ولعه بالبلاد البعيدة. كان أحد أخوة هنري مهتما بالأدب والرحلات أما أخوه الثاني فكان فارسا جاب العديد من بلدان أوربا حتى عرف بالرحَّال.

لم يهتم هنري بالشعر والأدب ولا بالسفر إلى البلاد القريبة والبعيدة وحياة الفروسية، ترجم أحلامه إلى شئ عملي وعلى يديه بدأت أولى رحلات البرتغال بهدف الوصول إلى آسيا عبر البحر المحيط وليس عن طريق البحر المتوسط. كانت لديه بعض الدلائل على نجاح طريق الدوران حول إفريقيا ومنها أشعار دانتي عن العالم الجديد.

يحكي لنا المؤرخ البرتغالي ديجو غوميشا فى القرن الخامس عشر الميلادي قصة البعثة التي أرسلها الأمير هنري الملاح في عام 1432 إلى جزر آزور بقوله :



نضب تذكاري للأمير هنري الملاح يقود حركة الكشف الجغرافي – لشبونة ، البرتغال

" لما كان الأمير هنري مهتما بجمع معلومات عن الأراضي البعيدة في البحر الغربي المحيط بهدف التأكد مما قاله بطليموس من أنه وراء عالمنا توجد جزر ما أو قارة من القارات، فإنه أرسل ملاحين نحو الغرب نجحوا في العثور على جزر تبعد عن رأس فينيستر بـ 300 ساعة من الإبحار. وكانت إحدى هذه الجزر غير مأهولة ومنها إلى جزيرة أخرى أطلقوا عليها اسم سان ميجال ثم عادت السفن إلى البرتغال، استقبلهم الأمير هنري وأرسل سفينة جديدة بقيادة الضابط الشهير غونسال فيليو وعلى متنها حيوانات مستأنسة لتعمير الجزر التي اكتشفها الملاحون". (في حقيقة الأمر لم يكن البرتغال أول من وصل إلى جزر آزور ولا جزر ماديرا، فقد سبقهم بنحو ألفي عام الفينيقيون القرطاجيون كما تحدثنا سلفا).

شجعت الرحلة السابقة الأمير هنري لاستكمال خطته بالوصول إلى الهند عبر المحيط الأطلسي. وكان على البرتغاليين أن يتغلبوا على صعاب جمة بعضها طبيعي يعوق الملاحة وبعضها متوهم من أساطير سابقة. ولعل أشهر هذه الأساطير تلك التي كانت شائعة آنذاك من أنه ما من إنسان عبر رأس بيجادور (جنوب شرق جزر كناريا) إلا وقد هلك. وقد ضيعت هذه الأساطير والمخاوف على البحارة البرتغال زمنا طويلا. ورغم أن هنري الملاح أرسل في خلال 12 سنة عدة سفن إلى هناك إلا أن بحارته لم يغامروا بعبور رأس بيجادور. حتى أرسل في عام 1433 سفنا بقيادة القبطان "جيل إيانيش" بهدف تخطى

رأس بيجادور واستكشاف الساحل الإفريقي إلا أن عدة مصاعب أعادت الرحلة فاشلة إلى البرتغال. وحسب المصادر التاريخية فإنه في العام التالي كرر هنري الملاح أمره للقبطان جيل ايانيش الذي نجح هذه المرة في عبور رأس بيجادور واكتشف كذب الأساطير حول الساحل الإفريقي.

لابد أن نقرر أن هنري الملاح كان يتابع رحلاته البحرية بإيمان ديني عميق في "رسالة" ما يقوم بها. فبالإضافة إلى الأهداف العلمية والسياسية لرحلاته كان هنري الملاح يسعى لاستئصال المحمديين (المسلمين) والوثنيين ونشر المسيحية. وساعده هذا الإيمان على أن يحصل على دعم روحي من الكنيسة بل وسمح البابا للبرتغال بأن تستخدم الأموال المودعة في خزينة الكنيسة لدعم رحلاتها. وهكذا أطلقت يد البرتغال في البحر وسمحت لنفسها بجلب الخيرات من الساحل الإفريقي كما جلبت معها العبيد. ومن ثم فقد تداخلت إيجابيات النتائج العلمية والدينية والسياسية مع مثالب أخرى على رأسها فتح باب واسع لاستبعاد الإنسان وجره إلى أسواق جديدة للنخاسة. وأحضرت السفن العبيد السود والذهب وحصلت رحلات هنري الملاح على دعم كامل من خزينة الدولة. لم تنمو تجارة الذهب بالشكل الذي يعوض الإنفاق على الرحلات فتركزت الجهود البرتغالية على إنعاش تجارة الرقيق والتكسب منها.

استمرت السفن البرتغالية تتخطى المواقع الجغرافية في غرب إفريقيا، فبعد رأس بيجادور وصلت إلى الرأس الأخضر (كيب فيرد) ولم يعد هناك شئ يخيف الملاحين البرتغال: لا مقاومة السكان الأصليين ولا الشعاب المرجانية ولا العواصف ولا الأساطير.

فاسكو دا جاما والوصول للهند

مات هنري الملاح في عام 1460 بعد أن أرسى الأسطول البرتغالي للملاحة وأقام مدرسة رائعة لعلوم البحار في سان فينسنت على الطرف الجنوبي لشبه جزيرة أيبيريا، وحين وفاته كانت أموالا طائلة تدخل إلى خزينة الدولة من تجارة الرقيق. وتركت الرحلات التي رعاها الأمير هنري معلومات جمعت من الدراسات الميدانية عن عادات ولغات الشعوب الإفريقية على الساحل الغربي للقارة بطول 3500 كم. كما سار الطريق إلى جنوب إفريقيا ومنها إلى الهند ينتظر من يكمله. ففي أحد الأديرة القريبة من سان فينسنت توجد خريطة بحجم إنسان (تعرف بخريطة فراو ماورو) ترجع إلى أواخر عهد هنري الملاح موقع عليها أوربا وآسيا وإفريقيا ويحيط بإفريقيا المحيط الذي يمكن عن طريقه الإبحار من جنوب غرب أوربا إلى الهند في آسيا.

وفى عام 1462 أي بعد موت هنري الملاح بعامين– بدأت الرحلات تكمل طريقها في خليج غينيا ومنها إلى جنوب خط الاستواء . وفى عام 1482 قاد "ديجو كان" أسطولا عبر به خط الاستواء بعشرين

درجة ليكون أول أوربي في التاريخ يصل إلى هذا المكان قاطعا 1500 ميل على طول السواحل الإفريقية حتى صحراء ناميبا.

أما النقلة النوعية في مسارات الرحلة البرتغالية في جنوبي إفريقيا فقام بها "بارثولومي دياز" حيث تمكن بثلاث سفن مجهزة أن يصل إلى مصب نهر الكونغو (زائير) وحينما حل الشتاء الجنوبي توغل جنوبا فيما وراء الدائرة المدارية الجنوبية وهناك عاكسته التيارات البحرية المتجهة من الجنوب إلى الشمال على طول الساحل الإفريقي جنوب خط الاستواء واضطرت سفنه إلى الانحراف بعيدا عن الساحل نحو الغرب في البحر المفتوح الذي كان أكثر برودة. تضافرت البرودة مع التيارات العكسية في عرقلة رحلة الدوران حول إفريقيا. تمكن دياز من إعادة المسار إلى الشرق فوصل ثانية إلى الساحل الإفريقي جنوب مدار السرطان بعدة درجات. وعلى الساحل وجد قبائل إفريقية ثائرة لقدومه خشية استعبادها فأطلق عليهم النار وقتل بعضهم ثم استمر في السير على طول خط الساحل جنوبا. آثر الملاحون العودة مع تزايد الإرهاق والمشاق لكن دياز رفض وأمر بإكمال المسير. كان دياز يؤمن بأهمية رحلته لخدمة المسيحية فعند آخر أرض سيصلها في الهند لابد وان يضع صليب مبنى من الحجارة ليباركه الرب، ولكن يبدو أن الرب لم يكن ليساعده في ذلك. كاد دياز وسفنه أن تعبر القارة الإفريقية بعد أن وصلت إلى رأس جنوبية كبرى لكن العواصف أبت أن تمنحهم هذا النجاح فأرغمهم توالي المشاق على العودة إلى لشبونة بعد أن أطلقوا على تلك الرأس رأس "العواصف". ولكن ملك البرتغال خوان الثاني قرر أن يغير الاسم الذي أطلقه دياز تشجيعا للرحلات المقبلة فبدل الاسم إلى رأس " الأمل الطيب" (أو رأس الرجاء الصالح). لم يعد ملك البرتغال في عجلة من أمره إذ بدا الأمر له مسألة وقت.

غير ان الأحداث توالت سريعا، فهاهي سفن كريستوفر كولومبوس الإسبانية تعود فاتحة أرضا جديدة وراء المحيط الأطلسي سميت وقتها بالجزر الأسيوية (جزر البحر الكاريبي حاليا). بدا أن الأمر لا يتحمل التريث والانتظار فلابد إذن للبرتغال من أن يصلوا إلى الهند في أقرب فرصة. أدرك البابا أليكسندر السادس الذي وصفه مؤرخون بأنه شخصية شديدة المكر والدهاء بتقسيم البحر المحيط إلى قسمين: شمال خط الاستواء للأسبان وجنوبه للبرتغال.

وهكذا خرجت في عام 1497 حملة جديدة بدت شديدة الحسم في الوصول إلى الهند الغنية بالتجارة والموارد. ترأس الملك الإسباني في تلك الفترة "مانويل الأول" الحملة بنفسه وأناب عنها في البحر القائد العسكري الشهير في عصره "فاسكو دى جاما" الذي عاد للتو من صراع السنوات الخمس مع سفن القرصنة الفرنسية على السيادة في البحر الجنوبي لأوربا وأبلى فيها بلاء حسنا. كان واضحا أن المطلوب الآن لإكمال الطريق إلى الهند فكر عسكري أكثر منه بحثي استكشافي أو تجاري. وإن كان دى جاما ليس بمهارة بحارة آخرين في البرتغال فان شجاعته وحسمه جعلته يترأسهم في الرحلة المنتظرة.

وهكذا خرجت في يوليو 1497حملة دى جاما مؤلفة من أربع سفن كبرى فتخطت جزر الرأس الأخضر وبدلا من أن تدخل خليج غانا اتجهت الرحلة إلى الغرب حتى تتفادى الاصطدام بالتيار الإفريقي الجنوبي المعاكس واستمر الإبحار في عرض المحيط الأطلسي حتى خط عرض رأس الرجاء الصالح فاتجهت السفن في سهولة ويسر إلى الساحل الإفريقي. وهناك تبادل دى جاما مع القبائل الإفريقية القبعات الملونة والمصنوعات البرتغالية في مقابل دهون ثيران وأساور من عظام الأفيال. ومع توجهه نحو شمال الشرقي من رأس الرجاء الصالح فوجئ البرتغاليون بمستوى حضاري أرقى وسلع صناعية وتجارة مزدهرة دلت على تأثير العرب على هذا الساحل الإفريقي.



رحلة فاسكو دي جاما إلى الهند

وفى دلتا نهر الزمبيزي توقف البرتغاليون لنحو شهر لإصلاح سفينة أصابها عطب، وخلال هذه الفترة أصاب الملاحون البرتغال مرض الإسقربوط فمات بعض منهم. كان الإسقربوط أحد اخطر الأمراض التي تصيب الملاحين حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر ولم يكن يدور بخلدهم أنه على مقربة من السواحل المدارية التى يمرون بها أعشاب شافية غنية بفيتامين سي.

أكمل دا جاما الرحلة نحو الشمال فقابلتهم السفن العربية التي كانت تتاجر في هذه المنطقة فتحمل منها العبيد وعظام الأفيال والعنبر والذهب. وهنا بدا واضحا أن البرتغال جاءوا لينافسوا العرب بتجارتهم.

كاد الأمر أمام ميناء مومباسا الواقع قريبا من خط الاستواء أن يصل إلى اشتباك مسلح. وفى خطوة استعراضية تدل على دراية بأساليب القرصنة صادر دى جاما إحدى السفن العربية بما عليها من حمولة.

اتجه دى جاما إلى الشمال فوصل إلى ميناء ماليندي فقابله بتودد شيخ الميناء (الذي كان على خصومة مع شيخ مومباسا) وأمده بملاح ماهر هو أحمد بن ماجد الذي يعرف الطريق جيدا إلى الهند فوصله البرتغال بسهولة ويسر في 20 مايو 1498 وحطت السفن عند مدينة قاليقوط في الجنوب الغربي. لم تمضى التجارة مع البرتغال في البداية على خير وجه فقد كان التجار العرب مسيطرون وبادروهم بالسؤال الشهير "أي شيطان أتى بكم إلى هنا؟"

تمكن البرتغاليون على أية حال من الحصول على سلع تجارية مهمة كالحرير والأحجار الكريمة ولكنهم لم يكن معهم ما يدفعونه كجمارك للموانئ فما كان من دى جاما إلا خطف مجموعة من الرهائن (مرة أخرى عمل قرصني صرف) وبادلهم بالجمارك!

الآن أصبح الطريق إلى لشبونة سهلا ميسرا مدفوعا بالنجاح الساحق فوصلها في صيف 1499 فاقدا سفينتين من أصل أربع ولم يعد معه نصف الملاحين بعد أن لقوا حتفهم في الرحلة الشاقة. استقبل دى جاما في بلاط الملك باعتباره فاتحا عظيما حقق ما لم يحققه غيره وكتب التاريخ اسمه بأحرف بارزة، غير أنه لم يكتب اسم أولئك الذين هلكوا في سبيل إتمام الرحلة، أو حتى اسم من عادوا فاتحين مع فاسكوا دى جاما.

الطريق إلى الشرق عبر الغرب
الإسبان في العالم الجديد

كُتب الكثير عن كريستوفر كولومبوس، وكان أول من كتب سيرة حياته أبنه، وما زال إلى اليوم يكتب الكثير عن طفولته وصباه وشبابه. ولد كولومبس في جنوة بإيطاليا وآمن بفكرة أفلاطون القديمة بوجود أرض أتلانتا. وكذلك أفكار إيراتوستين والتي طورها بعد ذلك سترابو والتي تقول بإمكانية الوصول إلى الشرق بالإبحار غربا. واحتفظ وعى كولومبس بفكرة أن الأرض كروية تشبه الكمثرى أكثر ما تشبه التفاحة، وفى رأس الكمثري توجد جنة الرب.

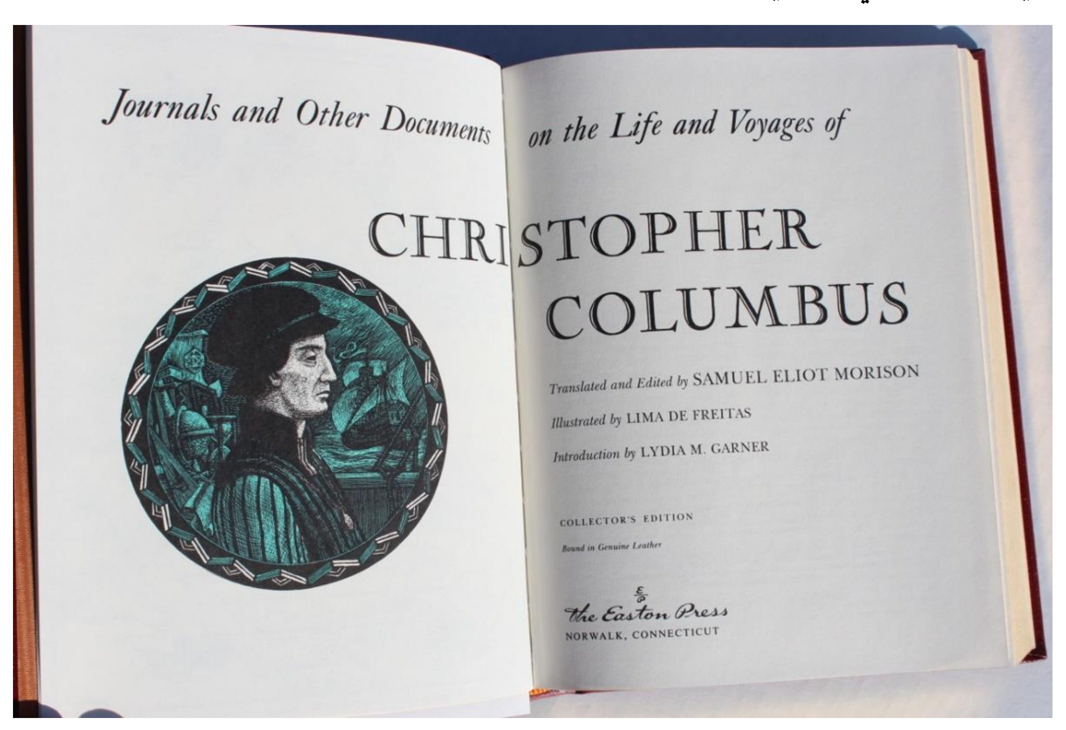
الطريف أن هناك رجل يغفل عنه الكثيرون، رغم انه صاحب الفضل في مشروع كولومبس، إنه توسكانيللي الإيطالي. يذكر التاريخ أن "مارتينز" المرشد الديني لملك البرتغال بعث برسالة إلى توسكانيللي يسأله فيها المساعدة العلمية للوصول إلى الهند من خلال الإبحار غربا. فقد كان القلق حاضرا في البلاط

الملكي بعد أن استغرقت رحلات إفريقيا 50 عاما ولم تصل إلى نصف سواحل القارة وبدت الهند بعيدة بالاتجاه شرقا.

أجاب توسكانيللي برسالة أكد فيها على إمكانية الوصول إلى الهند بالاتجاه غربا، وأرفق مع رسالته خريطة تبين تصوره للعالم وأظهرت الخريطة انه في غرب السواحل البرتغالية توجد الصين وغرب السواحل الشمالية الغربية لإفريقيا تقع اليابان والهند.

لم تكن إجابة توسكانيللي متوقعة لقادة البعثات البحرية البرتغالية وهم الذين قطعوا نحو 1500 كم في عرض المحيط وصولا إلى جزر آزور. وحسبما أوضحت خريطة توسكانيللي فإن المسافة من جزر آزور إلى الهند تبلغ نحو 10.000كم بينما آمن الملاحون البرتغال أن الطريق إلى الهند عبر المسار الشرقي يتوقع أن يكون أقصر، إضافة إلى انه اكثر أمنا وبعدا عن أهوال البحر المحيط . لم ينكر الملاحون البرتغال خريطة توسكانيللي لكنهم فضلوا المسار الشرقي.

كان كولومبس قد سافر إلى البرتغال في 1476 وتزوج من ابنة أحد الملاحين الكبار، وعاش مع زوجته في إحدى جزر ماديرا كما زار جزر آزور . وهناك تعرف على الكثير من الملاحين وعرف منهم قصة خريطة توسكانيللي والطريق إلى الهند بالاتجاه غربا.

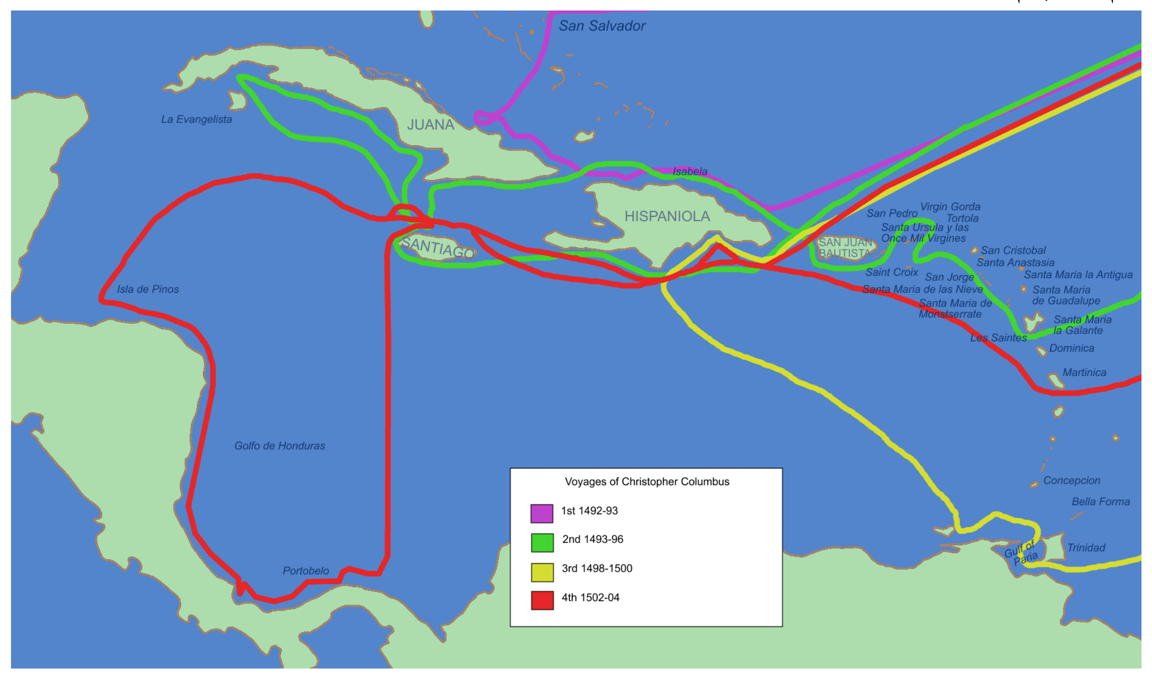


تختلف الروايات في كيفية حصول كولومبس على نسخة من خريطة توسكانيللي سواء نسخها عن الخريطة التي وصلت إلى البرتغاليين أو أرسلها له توسكانيللي بنفسه. سافر كولومبس يعرض فكرته على الأسبان بعد أن أكدت له فكرة وخريطة توسكانيللي معتقداته السابقة. لم يتلق من الأسبان قبولا للفكرة فقرر

السفر إلى بلد ثالث لولا معونة أحد معارفه ممن يعملون في قصر الملك. عرض كولومبس مشروعه أمام الملك والملكة بل وشروطه التي لم تقتصر على سفن وأموال للرحلة فحسب بل وحصة من عائدات فتح الهند ومنحه لقب أدميرال له ولأولاده من بعده، ومكانة نائب الملك في كل الأراضي التي سيفتحها. كاد الملك يطرد ذلك المغامر الوقح، غير أن الملكة استوقفته وراهنت عليه اعتمادا على حسن طالع النجم الذي ولد فيه كولومبس. وفى النهاية تمت الموافقة ومول أغنياء التجار الأسبان الرحلة.

وهكذا تحركت ثلاث سفن إسبانية في الثاني من أغسطس نحو جزر كناريا ومنها بدأت الرحلة تجاه الغرب حيث ينتظر أن تكون اليابان على بعد 5000 كم والهند على بعد 10.000. وبعد 33 يوم من الملاحة العسرة عثروا على الأرض ووجدوا عليها أناسا أسموهم الهنود البدائيين ظنا منهم انهم قد وصلوا الهند. وبدأ تاريخ جديد للعالم عرفت معه أوربا أشياء كثيرة بدأت بالبطاطس والذرة والطباق وانتهت بالذهب والثروات الكبرى من الهنود الذين فرحوا بالزجاج الملون والأواني الفخارية المصقولة والحلي المزركشة فمنحوا الأوربيين كل شئ.

ومما يؤسف له في هذه الفترة من الكشوفات تورط الكنيسة في أعمال أساءت للمسيحية واستغل المهاجرون (الذين أخرج بعضهم من السجن) شعارات المسيحية دون أن يؤمنوا بها فكانوا يحملون الصليب في أيديهم وقلوبهم متعطشة للذهب.



المملكة الوهمية

الإنجليز والبرتغال في أمريكا الشمالية

تظهر الخريطة التي رسمها ريس في عام 1508 أن الأوربيين تصوروا أن كولومبوس اكتشف أرضا جديدة في نصف الكرة الجنوبي أسموها أرض الصليب المقدس، وأنه فيما وراء البحر الكاريبي تقع مملكة الصين (في هذا التصور كانت جرينلاند بمثابة الطرف الشمالي الشرقي لآسيا).

وفى حقيقة الأمر فإن اكتشاف عام 1497 للقارة التي سميت فيما بعد باسم أمريكا الشمالية جاء نتيجة مجموعة من الصدف المتتالية. فقد انتقل جوفان كابوت – الذي صار ملاحا وتاجرا ماهرا– في طفولته مع عائلته من مدينة جنوة إلى فينيسيا (البندقية)، وهناك تزوج وأنجب ثلاثة أبناء. ولأسباب ما انتقل من فينيسيا إلى مدينة بريستول في غرب إنجلترا وهى الميناء الضخم ومركز صيد الأسماك في المحيط الأطلنطي الشمالي.

وبعد أن جاءت المعلومات الأولية عن فتوحات كولومبوس قرر تجار بريستول أن يقوموا برحلات تجارية إلى الهند والصين بالإبحار غربا واختير جوفان كابوت (الذي صار يعرف للإنجليز باسم جون كابوت) لخبرته الملاحية لإرشاد هذه الرحلات. ومع قلق أسبانيا من تحضير الإنجليز للتوجه غربا نحو الصين والهند كتب سفير الصين في إنجلترا إلى ملك أسبانيا يطمئنه بالقول "لن يتمكن الإنجليز من الوصول إلى الهند والصين إلا برجل مثل كولومبوس". وقبل أن تترجم أسبانيا قلقها إلى اعتراض رسمي على المحاولات الإنجليزية للإبحار في المياه التي اكتشفها الأسبان كان ملك إنجلترا هنري السابع يعطى كابوت وأبنائه تفويضا "بالإبحار في أي مكان من البحار الشمالية أو الغربية أو الشرقية (ولأسباب دبلوماسية تراعي مصالح الأسبان لم يشر التفويض إلى الجهات الجنوبية التي تعمل فيها الملاحة الإسبانية) كما ضمن التفويض فتح كل الجزر والأراضي والدول الوثنية أو غير المؤمنة بالمسيح.

ورغم التفويض الضخم لم تبحر مع كابوت سوى سفينة واحدة عليها 18 بحار واتجهت غربا من برستول فوصلت إلى جزيرة نيوفوندلاند وعادت منها محملة ببعض الموارد الطبيعية أهمها الأخشاب. وفى العام التالي خرج كابوت بأسطول حقيقي غير أن الموت عاجله في الطريق فتولى أبنه سيبستيان كابوت قيادة الرحلة التي وصلت إلى سواحل أمريكا الشمالية دون أن تنجح في اكتشاف شئ ملفت أو عقد صلات تجارية، فعادت إلى إنجلترا التي أضعفت عزيمتها نتائج الرحلة الفاشلة فتخلت عن فكرة الكشوفات لعقود تالية.

استغلت البرتغال الفرصة وأرسلت إلى الأرض التي اكتشفها الإنجليز بعثة بحرية في مايو 1500 بقيادة جاشبار كارتيريال خرجت من لشبونة باتجاه الشمال الغربي عبر المحيط الأطلسي فوصلت إلى جزيرة لبرادور . ولقد أطلق كارتيريال عليها لأول مرة اسم تيرا دي لبرادور وتعنى بالأسبانية أرض الفلاحة على أمل أن يستزرع هذه الأرض مستخدما سكانها الأصليين في صورة رقيق تحت إمرة الأسبان.

وفى العام التالي أبحر كارتيريال مرة أخرى إلى العالم الجديد متخذا وجهة أكثر جنوبية من موقع لبرادور وأدرك البحارة البرتغال بخبرتهم أن الأنهار الضخمة إلى تنحدر نحوهم (كنهر السانت لورنس) لا تنبع من جزر وإنما تدل مياهها على أنها تجرى في قارة كبرى هي التي عرفت فيما بعد بأمريكا الشمالية. وأرسلت الرحلة رسالة إلى ملك البرتغال تخبره عن الأرض الجديدة التي يسكنها أناس متخلفون لا يعرفون المعدن وفى مياههم ثروات سمكية كبرى وفى أراضيهم ثروات غابية ضخمة. غير أن كارتيريال لم يعد فأرسل ملك البرتغال في البحث عنه أخاه ميغل كارتيريال على رأس ثلاث سفن، وكان مصيره مشابه لمصير أخيه فلم يعد إلى الوطن. ورغم الفشل في تحديد ما هي الأرض التي وصلها كارتيريال وهل هى نيوفوندلاند أو لبرادور أو نيو سكوتلاند، فإن رحلات الصيادين البرتغال إلى نيوفوندلاند استمرت بشكل منتظم بعد ذلك التاريخ وأقاموا في نيوفوندلاند مستعمرة أسموها "كيب بريتون"

من كشف أمريكا: كولومبوس أم أميرجو؟

متى ومن اكتشف العالم الجديد؟ أسئلة ستبقى تحتمل كثيرا من النقاش. وقد بينا أنه قبل ألف وخمسمائة عام كان النورمان قد وصلوا أمريكا الشمالية قبل ان يكون التنافس بين البرتغال والأسبان.

كان كشف العالم الجديد في العصور الوسطى ذا أهمية خاصة، إذ عمد الأوربيون إلى استعمار ما تم كشفه من الأراضي قبل إكمال اكتشاف باقي الأراضي الجديدة أو تدقيق الخرائط المعروفة عن العالم في ذلك الوقت. بل إن الرحلتين الأوليتين لكولومبوس لم تكتشف من العالم الجديد سوى مجموعة جزر ولم تطأ قدماه أراضي أمريكا الجنوبية إلا في عام 1498.

وقبل ذلك بعام كان جون كابوت يصل إلى أراضى القارة الشمالية من العالم الجديد كما أشرنا من قبل وظن انه وصل إلى مملكة الخانات العظمى (الصين). وبين طيات تلك السنين يختفي اسم شخصية مهمة في تاريخ الكشف الجغرافي للعالم الجديد ألا وهو أميرجو فيسبوتشي.

ولابد أن نتذكر انه في الوقت الذي كانت سفن كولومبوس ترسو على سواحل أمريكا الجنوبية وسفن كابوت على سواحل نظيرتها الشمالية كانت السفن البرتغالية بقيادة فاسكو دي جاما تصل إلى الهند. وبعد

ذلك بعشر سنوات كان المستكشف الأسباني فاسكو بالبوا يقود فصيلة عسكرية ويعبر عنق بنما ليطل كأول أوربي على المحيط الجنوبي (ظن حتى ذلك الوقت انه جزء من المحيط الأطلسي)

كان أميرجو فيسبوتشي كارتوغرافيا ماهرا وعلى دراية بعلم الملاحة البحرية وأمضى سنوات حياته الناضجة في منصب القبطان الأول وينسب إليه الفضل في الاكتشاف النظري للأمريكيتين بينما ينسب إلى كولومبوس الاكتشاف العملي لهما. وحسب بعض الروايات فإن أميرجو قد شارك في حملة بحرية وصلت إلى سواحل أمريكا الجنوبية قبيل وصول كولومبوس لها. وفى عام 1503 أوضح كتيب ظهر في إيطاليا بعنوان "العالم الجديد" حجم ما اكتشفه الأوربيون وجاء في الكتاب إشارة إلى رحلة أميرجو التي سبق فيها كولومبوس في اكتشاف أميركا الجنوبية. وقد ترجم الكتاب وقتها من الإيطالية إلى اللغات اللاتينية.

وبعد ذلك بعدة سنوات ظهر كتاب آخر حول رحلات أميرجو فيسبوتشي، ثم كتاب ثالث لنخبة من المؤلفين يروي رحلات اكتشاف العالم الجديد، الطريف أن الكتاب حمل عنوان " العالم الجديد الذي اكتشفه أميرجو فيسبوتشي" فرغم أن العنوان صريح يقطع بفضل فيسبوتشي إلا أن المتن يتناول رحلات كولومبوس وفاسكو دا جاما وغيرهم. ثم ظهر كتاب آخر في ألمانيا يؤكد أن أميرجو فيسبوتشي تمكن في عام 1497 من الوصول إلى العالم الجديد قبل كولومبوس وأن فيسبوتشي صاحب الفضل الأول في كشف العالم الجديد رغم عدم ترويجه لنفسه بهذا الفتح الكبير. ويعتبر بعض الجغرافيين أن أمريكا لم تكن تحمل اسمه (أميرجو) لو لم يكن هو صاحب الفضل في اكتشافها.

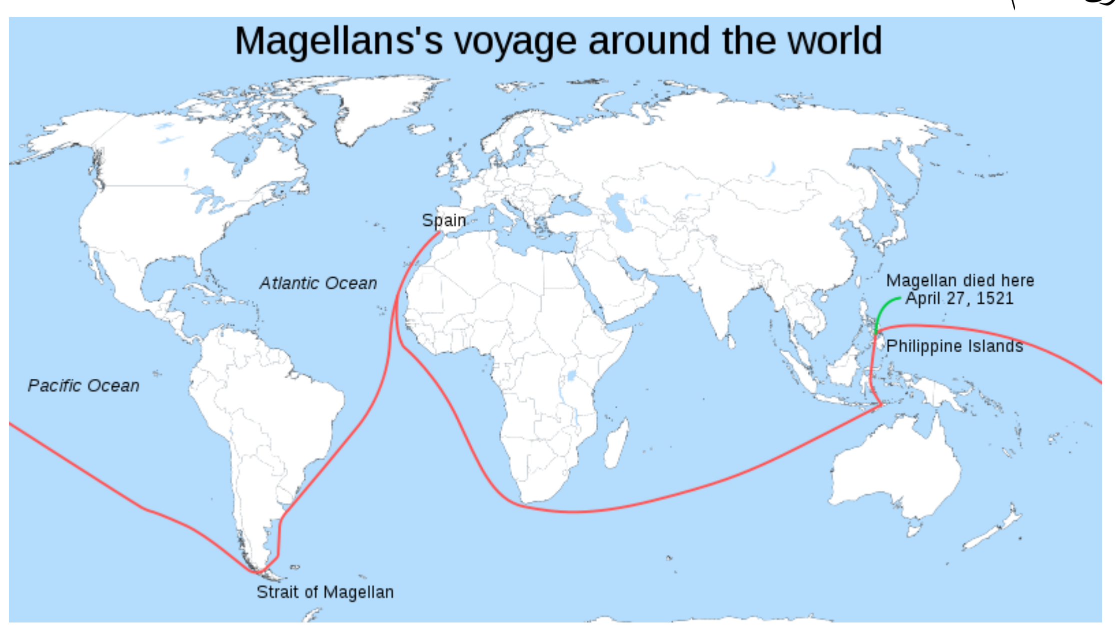
حول العالم : مجلان وإلكانو


فيرنان مجلان

كان بإمكان هذا الرجل أن يصبح بطلا لتراجيديا إغريقية لو عاش في زمن الإغريق. غير أن الحظ خانه في عديد من المرات. كان فيرنان مجلان من بين 500 بحار برتغالي أرسلوا في ربيع عام 1505م للهجوم على أراضي شرق العالم الإسلامي تحت إمرة الأميرال دالاميدي نائب الملك الأسباني. وكان فيرنان ماجيلانيش (والمشهور بمجلان) من نبلاء القصر الملكي قد تربي على السفر والارتحال وقتال الأعداء المسلمين.

كانت البرتغال قد أصبحت –رغم صغر مساحتها– في غرب أوربا اكبر دولة للاكتشافات الجغرافية في العالم. فبعد رحلة فاسكو دا جاما إلى الهند التي ربطت البرتغال وفتحت لها آفاق تجارية واستعمارية في كل من آسيا وإفريقيا لم يدب الخوف والقلق في نفوس المسلمين والمصريين والهنود فحسب بل ولدى الإيطاليين كذلك.

كانت هناك ترتيبات سرية للهجوم على حملة دالاميدي المبحرة نحو شرق العالم الإسلامي، وكاد المسلمون ينجحون في الإجهاز على هذه الحملة لولا شئ واحد تدخل في اللحظة الأخيرة لصالح البرتغال. فقد كان هناك رحالة إيطالي شهير اسمه لودوفيكو فارتيم الذي كان قد جاب الهند وسومطرة وبورنيو بل ورحل في رحلة سرية للحج إلى مكة معرضا نفسه للقتل إن اكتشف أمره من قبل المسلمين. علم لودوفيكو فارتيم بأمر التحضيرات السرية التي يعدها المسلمون في جنوب شرق آسيا لضرب حملة دالاميدي فدفعه انتمائه للمسيحية التي يشترك فيها مع البرتغاليين لأن يتغلب على غيرته القومية كإيطالي يرصد التوسع البرتغالي في المياه العالمية لأن يخبر دالاميدي بشأن الحشود العسكرية السرية التي تتربص بحملته. وهكذا عندما اقتربت 20 سفينة من سفن المسلمين في قاليقوت للإجهاز على 11 سفينة برتغالية يقودها دالاميدي (ومن بينهم ماجلان) تظاهرت سفن البرتغال بعدم الاستعداد وفجأة فتحت علي سفن المسلمين النيران من كل جانب وأحرقتها عن آخرها. وهكذا تمكن البرتغال من الانفراد بالسيطرة على طريق الذهب في شرق العالم .



لم يتبق أمام البرتغال ليسجلوا ملحمة فتوحات إلا أن يسيطروا على "جزر التوابل" ليحكموا القبضة على أهم وآخر معقل في التجارة الدولية آنذاك. وفى سبيل ذلك كانت سفن دالاميدي وعلى إحداها مجلان تحوم حول ميناء مالاقا (سنغافورة حاليا) وأبلى مجلان بلاء حسنا في تلك الظروف والمعارك القاسية وخاصة في اشتباكه مع الملاويين الذين انقضوا على سفن البرتغال من ميناء مالاقا فأجهز عليهم وطردهم إلى اليابسة ثانية بعد أن تمكنوا من قتل نصف البحارة البرتغال.

في تلك الأثناء نجح ألبوكيركي نائب الملك الهندي في احتلال مالاقا وإحكام السيطرة عليها. توجه البرتغاليون نحو سواحل استراليا. أما نتائج هذه الحملة القوية وما حصلت عليه من معلومات فقد بقى طي الكتمان لحين استخدامه في حملات مقبلة.

اثنان من قادة هذه الحملة كانا قد جمعا اكبر قدر من المعلومات وهما القبطان سيرانو وصديقه فيرنان ماجلان. في طريق العودة قرر سيرانو ان "يخرج من اللعبة" فنزل بإحدى الجزر وكون أسرة وبنى بيتا وآثر أن يعيش حياة هادئة بعيدة عن القتال والبحر ليستمتع بحياة البيئة المدارية الفاتنة. يقول في رسالة بعث بها إلى مجلان فيما بعد " لقد وجدت هنا عالما أكثر رحابة وجمالة من ذلك الذي اكتشفه فاسكو دا جاما".

أما مجلان فقد كان المجهول بيته والخريطة سكنه. عاد مجلان إلى البرتغال التي بدأت تجني ثمار حملاتها البحرية. وبعد غياب سبع سنوات في رحلته السابقة وجد المدن قد ازدهرت وازدادت غنى من البضائع والرقيق بمن فيهم العرب والزنوج. واصبح البحارة الذين جلبوا البضائع من الشرق أثرياء بينما عاشت في الفقر عائلات البحارة الذين قتلوا أو فقدوا في الرحلة ولم يعودوا إلى وطنهم فلم يلتفت إليهم أحد. في ذلك المناخ شعر مجلان بالغربة في وطنه، فكان الرجل ملاحا وعسكريا في آن، لذا كان صعبا عليه أن يعيش حياة مترفة أو ينتقل إلى حياة القرصنة كما فعل بعض من زملائه.

ألحقت الحكومة البرتغالية مجلان في حملة عسكرة لتأديب سلطان المغرب الذي رفض دفع الجباية التي فرضها عليه ملك البرتغال. لم يجد مجلان في تلك المهمة ما يشبع غريزته فشارك في القتال بغير حماس مما أدى إلى جرحه وعاد إلى البرتغال. وبعد صعوبات نجح في أن يحظى باستماع ملك البرتغال لمشروع تسيير حملة إلى جزر التوابل الغربية بهدف الدوران حول "أرض الصليب المقدس" (جزر البرازيل) أي ما يعرف اليوم بأمريكا الجنوبية. وبعد أن استمع إليه الملك واطلع على خريطته رفض المشروع دون تفكير طويل. وكان مبرر رفضه لمجلان هو: لماذا نخاطر بالإنفاق على مشروع مشكوك في نجاحه بينما البرتغال تزدهر وتنمو وتحتكر في يديها الطريق المائي الوحيد من أوربا إلى الهند؟

وهكذا خرج مجلان محبطا، وسرعان ما أرسل خارج البرتغال في مستعمرة إشبيلية الصغيرة (في أراضى أسبانيا حاليا). وهناك تزوج من بياتريش ابنة ديجو باربوزا الضابط البحري السابق في الجيش البرتغالي والذي صار رئيسا لقلعة إشبيلية المعروفة باسم "القصر". وبينما مضى شقيق زوجة مجلان يقنع كبار التجار في إشبيلية بأهمية مشروع الرحلة نحو الغرب كان مجلان يداوم على عرض مشروعه على ملاح إشبيلية الشهير رواي فالييرو.

في تلك الأثناء ينصب الملك كارلوس في عام 1519 إمبراطورا لأسبانيا ويحمل اسم شارل الخامس. تصله معلومات عن مشروع مجلان فيستدعيه هو وملاح إشبيلية رواي فالييرو وبعقد معهما اتفاقا يقومان بموجبه بالمشروع لصالح أسبانيا. غير أن حكومة البرتغال تصلها أخبار الاتفاق وما يمكن أن يسلبها ذلك سيطرتها على طريق التجارة نحو الهند واحتمال أن يؤدى مشروع مجلان إلى الوصول إلى الهند عبر الغرب فتزاحم أسبانيا البرتغال احتكارها. يعمل السفير البرتغالي لدي حكومة البرتغال كل جهده لدى الملك شارل الخامس حتى يقتل المشروع في مهده، بما في ذلك ثنى عزمه بالترويج لفشل المشروع. وأغرى مجلان بمنصب رفيع إن هو عاد للبرتغال، وحينما رفض مجلان أرسل إليه قاتلا مأجورا، ولكن مجلان نجا من القتل. بل إن هذا السفير رشى موظفي الغرفة التجارية الأسبانية المختصة بالتجارة مع الهند لعرقلة البعثة. بل حاول السفير الماكر أن يعرقل البعثة بإفساد المؤن والسلع التي ستحملها معها، غير أن جهوده باءت بالفشل.

بمباركة من الملك الأسباني شارل الخامس أبحر مجلان على رأس خمس سفن كبرى في العاشر من أغسطس 1519م. واختار مجلان معه شابا إيطاليا ماهرا هو أنطونيو بيجافيت وضمه إلى طاقم البحارة (سينجح هذا الشاب في العودة بالرحلة إلى أسبانيا بعد أن يقتل مجلان في الطريق وسيكون الوحيد الذي يكتب يومياته عن خط سير الرحلة ويسجل ما اكتشفته من أراضى وبحار).

تحركت السفن الخمس وعلى متنها 230 بحار يرأسهم 26 ملاحا. وقع الخلاف منذ بداية الإقلاع حين حاول بعض البحارة تعديل مسار الرحلة فيعزلهم مجلان ويعتقل من تمردوا. وعند الساحل الجنوبي الشرقي لأمريكا الجنوبية ومع بدايات المصاعب رفع البحارة الأسبان راية العصيان وطلبوا من مجلان تغيير خط سير الرحلة والاتجاه من هناك مباشرة إلى رأس الرجاء الصالح ومنها إلى الهند. كانت السفن العاصية ثلاثة والموافقة لمجلان اثنتان. نجح مجلان في النهاية في إقناع سفينة من الثلاث وهى سفينة فيكتوريا بالبقاء تحت إمرته، وأولى عليها شقيق زوجته. وبقيت سفينتان تحت العصيان سرعان ما استسلمتا أمام الأغلبية، وكان جزاء مجلان قطع رأس قبطان السفينة الأولى وترك قبطان السفينة الثانية ومشاركيه التمرد في جزيرة صحراوية منعزلة.

وفى يونيو من نفس العام (الشتاء الجنوبي) تحطمت إحدى سفن الأبحاث على شواطئ صخرية في جنوب شرق أمريكا الجنوبية فاضطرت البعثة للبقاء حتى انقضاء الشتاء. وهنا تعرف مجلان على سكان المنطقة وأطلق عليهم اسم "بتاجون" وتعني بالأسبانية ذوى الأقدام الطويلة، وعلى أرضهم اسم بتاجونيا. وفى الربيع – 18 أكتوبر 1519 م – تحركت السفن الأربع (بعد تحطم الخامسة) مرة أخرى نحو جنوب

أمريكا الجنوبية بحثا عن مخرج من المحيط الأطلسي إلى المحيط الجنوبي الواقع خلفها حيث تقع الهند حسبما اعتقد مجلان.

وفى مضيق ضيق وعر متعرج – سيعرف فيما بعد بمضيق مجلان– يفقد مجلان سفينة ثانية تمرد ضباطها وولوا وجهتم إلى طريق العودة نحو أسبانيا، وهناك اتهموا مجلان – أدميرال رحلتهم – بالخيانة فأوقف الراتب الذي كان يصرف لزوجته وأبنه حتى تضوروا جوعا.

خرجت السفن الثلاث بقيادة مجلان من المضيق الوعر لتبحر في البحر الجنوبي (المحيط الهادئ) أربعة أشهر لا ترى فيها اليابس. وهنا يكتب الملاح انطونيو بيجافيت " لما انتهى طعامنا حاولنا أن نأكل كسر الخبز الجافة، لكنها لم تعد خبزا لقد صارت ترابا مختلطا بالدود... أشبه ببول الجرذان المتعفن. لقد شربنا ماء أصفر اللون ركد لأيام طوال...اضطررنا لأكل جلد ثور كنا نستخدمه كغطاء لصاري السفينة الرئيسي. غمرناه في مياه البحر لخمسة أيام، بعدها وضعناه على موقد الفحم ثم أكلناه! لقد أكلنا نشارة الخشب.

هكذا كان الحال حينما قطعت السفن لأول مرة المحيط العالمي بحجمه الضخم المروع. وفى النهاية وصلت سفن مجلان في 27 أبريل 1521م إلى الفلبين. وفى شجار بين القبائل وبعضها البعض من السكان الأصليين للجزر سقط مجلان قتيلا.

وفى خلال عام ونصف من ذلك التاريخ تمكن مرافقو مجلان من العودة إلى الوطن ولم تبق سوى سفينة واحدة هي فيكتوريا عاد عليها 18 بحارا فقط من اصل 230.

استمر الحظ التعس يلازم مجلان حتى بعد مقتله، فقد فقدت مذكراته وظلت المذكرات الأساسية مع بيجافيت سرية في أسبانيا ولم يعرف أحد المصير الذي انتهت إليه.

كانت حمولة التوابل التي عادت بها فيكتوريا تكفي لتعويض ما انفق على الرحلة. واستقبل خوان سيباستيان إلكانو الضابط الأسباني الذي عاد على رأس فيكتوريا استقبال الفاتحين ومنح لقب "فارس" ومنح راتبا شهريا ضخما مدى حياته، كما نقش على الشعار الذي تزينت به بزته العسكرية كرة أرضية كتب تحتها "أنت أول من دار حولي".

ولم يكن هذا صحيحا، فأول من دار حولها كان المقتول مجلان الذي وصل إلى إندونيسيا في الحملة ضد المسلمين في الشرق ووصل إلى الفلبين في رحلته نحو الغرب ليكمل بذلك الدوران قبل أي إنسان في العالم فهو الذي قطع المحيطات الثلاثة : الهندي والأطلسي والهادئ. ويبدو أنه من الصعب أن نستبعد هنا اهتمام أسبانيا بإلكانو مواطنها مع إهمال مجلان البرتغالي الأصل. وظل مجلان طي النسيان لعدة سنوات تالية في ظل احتفاء أسبانيا بإلكانو حتى أخرج بيجافيت مذكراته للنور معطيا لمجلان حقه

فكتب عنه يقول "لم يكن هناك من يفهم خريطة الأرض وعلوم الملاحة، ولا من يتحمل الجوع والألم في سبيل الوصول للمجهول مثل مجلان"

مضيق دريك

تمت الكشوف الجغرافية في العالم الجديد في ظروف بالغة الصعوبة سواء في صعوبة الأحوال البحرية التي مروا بها أو قسوة الأراضي التي قطعوها وكان كل ذلك يمضى في قتال مع السكان الأصليين لمناطق العالم المكتشف. ويقدر أن تسعة من كل عشرة من الفاتحين كانوا يلقون حتفهم ومن يتبقى منهم لا يعود إلى حالته الصحية التي خرج عليها.

وفى كل من الرحلات كانت تضاف معلومة جديدة وتنقح خريطة قديمة وان ظل غير معروف هل ترتبط أمريكا الشمالية بآسيا؟ كما لم يكن مفهوما بعد كل تلك الرحلات ما هي النهاية الجنوبية لأمريكا الجنوبية وبما تتصل. إذ أظهرت خرائط تلك الفترة أن هناك قارة كبيرة تقع على أطراف مضيق مجلان الذي يفصلها عن جسم قارة أمريكا الجنوبية. ولم توقع حدود هذه القارة عن مشارف القطب الجنوبي وإنما امتدت عن حدود مدار الجدي، ولم تكن هناك من مغريات لتدقيق خرائط هذه القارة التي استبعد الملاحون أن يكون في هذه المنطقة النائية من الجنوب ثروات أو موارد ذات قيمة.

ورغم الحظ العثر الذي واجه مجلان كانت الأقدار تبتسم لأدميرال البحر البريطاني "فرانسيس دريك". كان دريك محترفا لأعمال القرصنة، وتمكن بعد عدة حملات قرصنة ناجحة أن يغزو في عام 1572 على السفن الإسبانية في أمريكا الوسطى وعاد إلى وطنه محملا بسلع ثمينة. وفى عام 1577 تمكن دريك من أن ينظم حملة قرصنة جديدة تتجه نحو المحيط الهادئ الذي صار معروفا الآن بعد رحلة مجلان التي سبقته إلى ذلك الطريق بخمسين سنة. أبحر على متن أربع سفن كبرى وعدة سفن صغيرة تابعة وعبر في أبريل 1578من أمام مصب نهر لابلاتا وتابع طريقه نحو الجنوب.توقف للاستراحة في بتاجونيا وتحقق من أن المعلومات التي رواها الأسبان عنهم غير صحيحة خاصة ما ذكروه من تأخرهم الحضاري، وإن تأكد مما قالوه عن أجسامهم الفارعة وكتب في مذكرات الرحلة يقول "لقد كانوا طيبين لدرجة لم نجدها حتى بين ذوينا المسيحيين".

عبر دريك مضيق مجلان حسب الوصف والرسم الذي جاءت به رحلته وتمكنوا من الخروج منه بأمان بعد أسبوعين ونصف في شتاء قاس تضور معه بحارته جوعا فتوجهوا مباشرة نحو المنطقة المدارية من المحيط الهادئ غير أن الرياح أتتهم بما لم يشتهوا ودفعت بسفنهم إلى حيث لا يعلمون، تحطمت

في هذه العاصفة سفينة وضلت الثانية الطريق فعادت في النهاية إلى مضيق مجلان ومنه إلى بريطانيا. واستمر الريح العاصف يدفع سفن دريك لوجهة لم يستطيعوا تحديدها. وبعد ان انقضت العاصفة أدركوا انهم انجرفوا نحو الجنوب لمسافة بعيدة عن مضيق مجلان وهنا رأوا أن البحر المحيط يلف الأرض الواقعة إلى الجنوب من مضيق مجلان ولا تتصل بقارة كبرى في الجنوب كما كان معتقدا، وأن الصحيح هو أن الأرض التي قال عنها مجلان أنها قارة كبرى ليست إلا جزيرة. وتعرف دريك على ذلك الممر المائي الواسع الذي يفصل بين طرف أمريكا الجنوبية وانتركتيكا والذي عرف لاحقا باسم مضيق دريك. وهكذا تمكن دريك – دون قصد– من تحقيق كشف جغرافي عظيم. الطريف أن القبطان الأسباني فرنسيسكو أوسيس كان قد أشار إلى وجود هذا الطريق قبل رحلة دريك بخمسين سنة ولكن لم يأخذ ما جاء به على محمل الانتباه او الجد.

عاد دريك من الممر الذي اكتشفه ثانية إلى الشمال فلم يعثر على أى سفينة من سفنه، فتوجه إلى الشمال أكثر فعقد صفقة مع هنود المنطقة (شيلي حاليا)، وأمام بلدة فالبرايسيو (ملاصقة لموقع سانتيجو العاصمة الحالية) هجم على سفينة إسبانية ونهب ما فيها من خمر وذهب وخريطة سرية لأمريكا الجنوبية، واتضح فيما بعد أن السواحل الغربية على هذه الخريطة غير دقيقة فصححها دريك. لم يكن الأسبان يتوقعوا أن يتعقبهم أحد على هذه السواحل التي لا يعرفها غيرهم ومن ثم لم يكونوا مستعدين بحراسة لسفنهم المحملة بالذهب الذي كان يجمعه الأسبان من العالم الجديد، نجح دريك في قرصنة ما عليها.

على سفينته "الأيل الذهبي" وقف دريك حائرا كيف يمكنه الآن أن يعود إلى بريطانيا دون أن يعترضه الأسبان للانتقام ربما في موقع قريب من حادثة قرصنته : مضيق مجلان. قرر دريك ألا يرجع من طريق العودة فأدار سفينته نحو الشمال محاذيا للساحل فوصل إلى غرب أمريكا الشمالية عند خط عرض ˚48 شمالا (أقصى شمال غرب الولايات المتحدة حاليا على حدودها مع كندا) ومن هناك توجه نحو الغرب فوصل بعد ثلاثة أشهر إلى جزر ماريان (شمال بابوا نيوغينيا) وبعد شهر ونصف إلى جزر الملوك (الجزر الشرقية من إندونيسيا حاليا) واستقبل سكان جزر الملوك طاقم السفينة بترحاب وتودد وإن لم ينزل دريك خوفا من أن يلقى مصير فيرنان مجلان. ومن جزر جاوة تحاشي دريك الالتقاء بسفن الأسبان والبرتغال فاتجه مباشرة إلى رأس الرجاء الصالح عابرا المحيط الهندي. وهكذا عادت "الأيل الذهبي" إلى بريطانيا لتكون ثاني سفينة بعد فيكتوريا تدور حول الأرض وأول سفينة تدور حول الارض عائدة بقبطانها. وغطى الذهب والسلع التي أتت بها السفينة مئات الأضعاف مما أنفق

على الرحلة. وهكذا فك هذا القرصان البريطاني احتكار الأسبان والبرتغال للملاحة في البحر المفتوح والعالم الجديد.

من آسيا إلى أمريكا
(الرحلات الروسية)

انشغل القيصر الروسي بطرس الأكبر في عام 1724 م بمحاولة معرفة هل تتصل القارة الآسيوية بأمريكا؟ فجهز بعثة يترأسها الملاح الموهوب فيتوس بيرنغ، ذو الأصل الدنماركي وكان يساعده أليكسي إليتشيا تشيركوفا. وعبر عامين مر الطريق بكل القسم الأوربي من روسيا ومنه إلى سيبيريا مستخدمين الزلاجات وعربات النقل والمراكب . وكان أصعب قطاع في الرحلة ذلك الممتد عبر ألف وخمسمائة كيلو متر حيث الجوع والتجمد وانعدام الطرق، وحمولة ثقيلة تجرها الزلاجات حتى وصلت البعثة بصعوبة إلى أوخوتسك. وبعد استراحة من الطريق الطويل عبروا بحر اخوتسك إلى شبه جزيرة كمتشكا حيث شيدوا هناك السفينة " القديس جبريل " ونزلوا بها إلى نهر في شبه جزيرة كمتشكا حيث دلفت بهم إلى البحر فأبحروا بمحاذاة ساحل كمتشتكا باتجاه الشمالي الشرقي حتى وصلوا إلى خليج أنادير (أقصى شمال شرق سيبيريا) وكانوا أول من وصل إلى مضيق كريست (الصليب) ومنه إلى جزر القديس لافرانت.



تابعت الرحلة مسارها نحو الشمال ولم يعد المشاركون عبر يومين من الإبحار قادرين على تحديد الجزر والبحار الأرض التي يمرون بها أى منها تتبع آسيا وأي منها تتبع أمريكا. اقترح تشيركوفا التوجه غربا نحو رأس كولوم (بحر سيبيريا الشرقي جنوب شرق جزر نوفاسيبيرسك) لكن أعضاء البعثة اعترضوا على الفكرة. اتجهت البعثة شرقا فقابلت أولى جزر مضيق بيرنغ وهى جزيرة القديس ديوميد. حاول بيرنغ بلوغ قارة أمريكا ولكنه لم يتمكن لصعوبة ظروف الملاحة فعاد أدراجه عبر خط السير الذي أتت منه الرحلة ووصل إلى بطرسبرغ. وفى خلال فترة غيابه قامت البعثة باستكشاف منطقة المضيق بين ساحل أمريكا وساحل تشوكوت ثم عادت لتستقر على الساحل الشرقي لكمتشتكا.

وفى خلال وجوده في بطرسبرغ تمكن بيرنغ من أن يحضر بعثة علمية أكبر انضم إليها عدد كبير من علماء أكاديمية العلوم الروسية بمختلف تخصصاتها. وأطلق على البعثة اسم " المجموعة الأكاديمية للبعثة الشمالية الكبرى".

واستمر التحضير لهذه البعثة نحو ثمان سنوات، وتوجهوا في النهاية إلى أخوتسك وشيدوا سفينتين كبرتين: "القديس بطرس" والقديس "بافل". وحينما حط بهم الرحال على الساحل الشرقي لكمتشتكا اسموا المنطقة باسم يجمع بين السفينيتن "بتروبافلوف" وقامت فيما بعد مدينة حملت هذا الاسم (مدينة بتروبافلوفسك).

وفى صيف عام 1741 خرجت السفينتان : القديس بطرس وعلى رأسها فيتوس بيرنغ، والقديس بافل وعلى رأسها تشيركوفا. وكانت السفينتان من الضخامة بحيث تتسع كل منها إلى 100 طن ولنحو 75 بحار. حاولت السفينتان التحقق ما يحكى عن ارض جوان دا جاما فاتجهوا جنوبا بشرق ولم يعثروا على شئ وفى طريق العودة ضلت السفينتان الطريق وتاهتا عن بعضهما البعض وسلكت كل منهما طريقا مختلفا. نجح بيرنغ بسفينته القديس بطرس أن يصل إلى الأراضي الأمريكية في منتصف يوليو وطالع من على بعد الجبال الشاهقة التي تغطيها الثلوج. فأطلق عليها اسم جبال القديس "إليا" وسارت الفينة بمحاذاة الساحل غربا واكتشف بيرنغ أن البحارة قد تفشى بينهم مرض الأسقربوط.

تم اكتشاف مجموعة من الجزر أسموها جزر الضباب (سميت فيما بعد بجزر تشيركوفا). وسقط أول بحار صريعا بيد المرض، دفن الرجل في إحدى الجزر. وبعد التحرك ثانية قابل الروس لأول مرة قبائل أليوت فسميت الجزر التي يعيشون عليها باسمهم (جزر أليوتيان وتعرف على الخرائط الانجليزية بجزر أليوشيان).

اتجهت القديس بطرس نحو الغرب متعرضة ببرد قارص فوقع كثير من البحارة مرضى البرد وقلة الماء والطعام حتى رسوا في أرض ظنوا أنها كمتشتكا. لم يتبق على قد الحياة سوى عشرة أشخاص وسرعان ما سقط ميتا بحار وراء الآخر. وفى 8 ديسمبر 1741 جاء دور الموت على فيتوس بيرنغ. غير أن التاريخ لم يبخسه حقه، فحمل اسمه المضيق والبحر والجزر، فقد كان أول إنسان يصل إلى الطرف الشمالي الشرقي لآسيا وذلك في عام 1648م.

مات مع بيرنغ العديد ولم يتبق سوى 46 شخصا وتحطمت السفينة القديس بطرس فصنع البحارة مركبا أقلتهم من الجزيرة التي رسوا بها – التي اكتشفوا انها ليست يابس كمتشتكا– باتجاه الجنوب الغربي فوصلوا بعد أربعة أيام جزيرة كمتشتكا ثم بعد أسبوعين وصلوا إلى موضع بترابوفولسك ومنها توجهوا إلى سان بطرسبرغ.

نعود إلى السفينة القديس بافل التي لم يكن طريقها اقل خطورة من شقيقتها. ففي 16 يوليو قابلت السفينة جزيرة قرب الساحل الأمريكي ونزل منها خمسة عشر ضابطا عسكريا لاستكشاف المكان...مرت الأيام دون ان يعود منهم أحد. قرر تشيركوفا العودة من حيث أتي، في طريق العودة قابلت القديس بافل ضباب مخيم ورياح شديدة مما أخر عودتها إلى موقع بترابوفولسك نحو 10 أسابيع وفى الطريق تم استكشاف وتسجيل عدة جزر. انتظر تشيركوفا في بترابوفولسك إلى الصيف التالي واعاد الكرة بالتوجه نحو الشرق فوصل إلى عديد من الجزر التي مرت بها سفينة بيرنغ، واستمر تشيركوف يبحث عن رفاقه دون ان يعثر على شئ.

ورغم الجهد الكبير الذي قام به تشيركوفا إلا أن اسمه ظل في ظل اسم بيرنغ ولم يوف حقه في استكشاف هذا الجزء المهم من العالم. وقد ظلت نتائج رحلته سرية ولم يكشف عنها الا في عام 1941. والطريف أن هذه الملفات كشفت عن أن سفينة بافل وصلت إلى السواحل الأمريكية قبل سفينة القديس بطرس التي كان يترأسها بيرنغ. وكما دفع بيرنغ حياته ثمنا لرحلته بين آلاسكا وكمتشتكا مات العديد من بحارة رحلة تشيركوفا حياتهم كذلك مرة بالاسقربوط ومرة بالضباب والبرد. بل ان تشيركوفا نفسه عاد إلى الوطن مريضا واهنا ولم يعمر طويلا بعدها. وقد تمكن قبل موته من رسم خريطة لشمال المحيط الهادئ.